يوزع مجاناً
مع مجلة
أسامة
العدد (٦٠)

وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب
منشورات الطفل
كتاب شهري للناشئة

طروادة
من الأسطورة إلى الاكتشاف



موسى ديب الخوري

طــروادة

من الأسطورة إلى الاكتشاف

رئيس مجلس الإدارة

الدكتورة لبانة مشوّح وزيرة الثقافة

المدير المسؤول - المدير العام: الدكتور وضّاح الخطيب

رئيس التحرير - غسان كلاس

الإشراف الطباعي: أنس الحسن

موسى ديب الخوري

طــروادة

من الأسطورة إلى الاكتشاف

الهيئة العامة السورية للكتاب - منشورات الطفل
وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٣م

مقدمة

تـروي الحكايـات قصـة بطـل أسطـوري حـارب تحت أسـوار طـروادة، وقصـة شخصـ عبقـري صنـع حصانـاً خشبيـاً ضخماً وخبأ فيـه جنوداً، وقصة ابن ملك جازف بمقاتلـة وحش ضخم قابـع في أعماق متاهة، فقتله وفاز بأميرة جميلة..

صـدّق فتى صغير هذه الحكايات، وعندما كبر مضى بحثاً عن طروادة وعن مغامرة لا تقل جمالاً في اكتشاف مدن دفنت تحت الأرض، وحضارات تلوّنت بالخيال...

نـروي في هـذه القصـة مغامـرات عـدد مـن رواد علم الآثـار الأوائـل الذيـن مضـوا بحثـاً عن عـوالم لم يكن أحد يعرف شيئـاً عنها، وطواها النسيان تماماً. إن آلاف السنـين التـي تراكمت فوق تلـك المدن القديمـة مشكلة

طبقات من الردم والرمال حفظت لنا شواهد رائعة لحياة كانت غنية بكافة تفاصيلها اليومية. وعندما نقرأ اليوم تاريخ هذه الاكتشافات نعلم أن هؤلاء الرواد كانوا أبطالاً حقيقيين في بحثهم وإصرارهم على اكتشاف المجهول...

حلم الطفولة

يعـاني كل عـالم آثار، حين يطول عملـه في التنقيب دون أن يعثر علـى آثار هامة، من شعور مثبـط للهمة. ثم يتذكّر هينريش شليمن Heinrich Schliemann فيستردّ شجاعته. ذلك أن المثال البطولي للرجل الذي اكتشف طروادة يحيي آماله من جديد.

كان شليمـن يحلـم منـذ نعومـة أظفـاره بالتنقيـب عـن الآثار واكتشافها. لقد عاش طفولته في قرية إنكرشاغن الألمانية الصغيرة بـين عامـي ١٨٢٥ و١٨٣٠، وكان يستمـع خلال السهـرات الشتوية الطويلـة إلى الأساطـير التي كانـت تتحدث عن كنـوز مطمورة في الجـوار. كان والده قساً فقيراً، وكان هذا الولد الواسع الخيال يأمل بمساعـدة والده عـن طريق اكتشاف الذهب المخبـأ في برج مهدّم، أو على قمة هضبة كمـا تحكي الرواية. وعندما بلغ شليمن الصغير عامه السابع، حكى له والده قصة حرب طروادة، ومنذ ذلك الحين أصبحت حكايات قريته تأتي في المرتبة الثانية من اهتماماته. وأخذ هـذا الطفل، الـذي بدأ يهتم بالأساطير اليونانيـة، يستمع دون كلل لحكايات هكتور وأخيل وبريام وأغاممنون وهيلين وأندروماك.



متحف شليمن في قريته إنكرشاغن مسقط رأسه

إنهــا الإليــاذة، من أشهر الملاحــم في التاريخ، وهــي تنسب إلى الشاعر هوميروس الذي كتب قصة دمار مدينة طروادة. ومن خلال هــذه الأسطورة التي لم يكــن يملّ من الاستماع لهــا، عرف شليمن كيــف أن زيوس ملك الآلهة، الذي خــاف من ازدياد قوة البشر على الأرض، قــرر تقليص عددهم من خلال حرب دموية. فحرّض على قيام النــزاع الشهير بين الإلهات هيرا وأثينا وأفروديت حول تفاحة ذهبية ليثير عداوة بين عشاقهن الأرضيين. لم يجرؤ أحد من الآلهة على الفصل بين الإلهــات الثلاث ، واختير باريس، ابن بريــام ملك



مشهد اختطاف هيلين كما نقش في عمل نحتي قديم معروض في متحف لاتران في روما.

طـروادة، ليختار مــن منهن الأجمل والتي تستحــق التفاحة، فأشار إلى أفروديت التي كافأته على ذلك بوعدها له أن يحب أجمل نساء الأرضـ! وهكذا فقد توجه إلى إسبارطة، فرأى هيلين ذات الجدائل

الذهبيــة الفائقة الجمــال زوجة مينيلاس ملــك إسبارطة، فأحبها وخطفهــا. فجمع زوجها القادة الآخيــين الموالين له ليعيد هيلين إلى بيتها. وبعد استعــدادات طويلة، أبحرت ألف سفينة باتجاه طروادة البعيدة! لكن طروادة كانت محصّنة، فحاصرها الآخيون لمدة عشر سنين.



مشهد من فيلم عن حرب طروادة، يظهر فيه الطرواديون وقد أدخلوا الحصان إلى المدينة ولم ينتبهوا إلى خدعة أوليس

وخلال إحدى المبارزات قَتَل هكتور ابن ملك طروادة صديقَ أخيل، البطل الأسطوري الذي كان من الصعب هزيمته. فثارت ثائرة أخيل وبارز هكتور وقتله. فما كان من باريس، أخو هكتور، إلا أن أصاب أخيل بسهم في كعب قدمه، وهي نقطة ضعف أخيل. واستمرت المعارك دون فوز أحد الطرفين. فخطرت لعوليس فكرة ماكرة، وبنى حصاناً خشبياً ضخماً خبّأ جنوداً فيه. وتركه اليونانيون أمام أسوار طروادة وتراجعوا قليلاً. اعتقد الطرواديون أن الحرب انتهت مع تراجع اليونانيين، ففتحوا أبواب السور، وأدخلوا الحصان كغنيمة حرب، وراحوا يحتفلون بنصرهم المزعوم. وعندما هدأت الحركة وناموا، خرج الجنود اليونان من الحصان، وفتحوا الأبواب للجنود المختبئين في الخارج وفي السفن. وهكذا قتل كثير من الطرواديين، وأحرقت المدينة واستطاع مينيلاس العودة بهيلين إلى إسبارطة.



كانت هذه القصص التي يقرؤها له والده تثير بقوة مخيلة الطفل. إلاّ أن

أكثر ما كان يثير خيال شليمن، آثاري المستقبل، هو أن طروادة، التي كانت مسرح هذه البطولات كلها، قد اختفت تماماً عن وجه الأرض، حتى إنَّ أحداً لم يكن يعرف أين كانت توجد هذه المدينة في الماضي. وفي عيد الميلاد في ذلك العام نفسه، أهدى القس شليمن إلى ولده أهم هدايا صباه، وهي نسخة من مجلد التاريخ العالمي لمؤلفه جرّر. وكانت إحدى لوحات هذا الكتاب تصور طروادة تأكلها النيران، بأسوارها الضخمة وبابها الكبير، الذي هرب عبره بطل طروادي حاملاً أباه على كتفيه وولده بين ذراعيه.

إن رؤية تتم في طفولة الإنسان قد تحدّد رسالة حياته المقبلة كلها، وتلكم كانت دون شك حال هينريش شليمن. لقد بدأ الطفل يفكر على النحو التالي: «إذا كانت مثل هذه الأسوار قد وُجدت يوماً ما، فإنه من غير الممكن أن تختفي كلياً. ولابد أن خرائبها الواسعة لا تزال موجودة في مكان ما». وهكذا تشكل في ذهن الطفل مشروع الذهاب يوماً للبحث عن طروادة. ولم يكن له من العمر آنذاك أكثر من ثمانية أعوام، إلاّ أن دربه كانت قد تحدّدت.

كان عليه حتى ذلك الحين أن يعيش مع أسرته وأن يساعد والده في إعالة العائلة الكبيرة. ولهذا عمل في التجارة وكان بعد في الرابعة عشرة من عمره. وبقي أكثر من خمسة أعوام موظفاً تجارياً في مخزن بقالة. وهكذا أهمل تماماً قراءاته الكلاسيكية بين سمك الرنكة والسكر والسمن وسلع منزلية أخرى. وفي أحد الأيام



حاول العمل عن طريق السفر البعيد والمغامـرة. فعمل نوتياً بين مجموعة من البحارة على مركـب مبحـر إلى فنزويـلا. إلاّ أن هــذا المركب غرق أمام جزيرة، ووجـد شليمن نفسه في المستشفى دون أي فلس. ثم عمـل في مكتب في أمستردام، وأخذ يدرسـ اللغات الحديثة وفق منهج من اختراعــه. وخلال عامين أتقن الإنكليزية والفرنسية والهولنديــة والإسبانية والبرتغالية والروسيــة! وبشكل مواز، أظهر تفوقــاً ومهـارة في الأعمال الموكلـة إليه، وأخذ منصبــه يرتفع أكثر فأكـثر في عملــه. وفي الخامســة والعشرين من عمــره افتتح مكتبه التجاري الخاص.

وهكذا سافر شليمن، وأسس بنكاً في أمريكا، ونقّب عن الذهب في روسيــا. لكنه لم يكن خلال هذا الوقت قد نسي الفكرة التي فرضت نفسهــا على ذهنه في طفولتــه أمام صورة طـروادة في كتاب تأريخ

العالم لجــرر، وبدأ يخصص أوقات فراغــه لدراسة اللغة اليونانية الحديثــة واللغــة الإغريقية القديمة. كان ينتظــر اللحظة المناسبة، ويتحضّــر لها بصمــت، آملاً أن يجد الجــدران التي صدّت الآخيين عشرة أعوام، وقد طُمرت تحت غبار العصور. وعندما بلغ السادسة والأربعين من العمر، كانت ثروته قد ترسّخت وباتت مواردها ثابتة، فــترك الأعمــال والأمــوال والتجارة خلفــه، وانطلق بحثــاً عن حلم طفولته.

الحلــم يتحقق

لم يكــن شليمن بالطبع هو الوحيد الذي كان يريد نبش طروادة. فلقــد درس علمــاء كثيرون، ومنذ فترة طويلة قبــل شليمن، المسائل التــي طرحهــا هوميروس. وكان عــدد كبير من الباحثــين قد كتبوا مئــات الكتب ووضعوا عــدداً هائلاً من الفرضيــات، إلاّ أن النقاش حولهــا كان يستمر دون جدوى. كان بعضهــم واثقاً تماماً من وجود طروادة، وكانوا يبحثون بحماس شديد عن موقع خرائب المدينة. إلا أن معظم الباحثين كانوا يعارضون هذه الفكرة، ولم يكونوا يرون في مؤلــف هوميروس سوى قصة تخيلية بحتة. وكانوا يقولون «إن آلهته وأبطاله لا ينتمون إلى الواقــع التاريخي. وكما أن أغاممنون وأخيل وبريام وهكتــور ليسوا إلاّ أسطورة، فإن طــروادة أيضاً ليست سوى أسطورة.»



ماكيت أو نموذج معماري لطروادة وأسوارها في السوية السابعة، ويعتقد العلماء أنها طروادة التي تحدث عنها هوميروس.

يظهر سبب هــذه الاختلافات بوضوح لمن يقرأ الإلياذة، ويحاول أن يوفق قراءته مع ما يعرفه عن الإغريق الأوائل. وفي الحقيقة، فإن الإليــاذة تذكر وقائع ترجع إلى اليونان مــا قبل العصور التاريخية، في حــين أن الأخلاق والعادات والمواد والأدوات الموصوفة فيها ترجع لحضــارة متطورة. ونحن نعلــم أن الإغريق كانــوا بسطاء وخشنين عندما ظهروا للمرة الأولى على المسرح التاريخي. ولم تكن لهم بعد

مدن محصنة أو قصور أو أسطول قوي أو ملوك أقوياء. فكيف يمكن إذاً لمثل هذه الأسطورة من العصر القديم، التي تتكلم عن حوادث ترجع إلى ماض أقدم بكثير، أن تصف أسواراً تقاوم الحصار لمدة عشر سنوات، وعن أسطول من ألف مركب، وعن قصر تلمع ثرواته كبريق القمر والشمس؟ ترى هل كانت بلاد الإغريق قد عانت من فترة انحطاط؟ وهل أن البهاء الذي وصفه هوميروس كان قد غاب في ظلمة بربرية؟

قد يكون من الأسهل القول إنه كانت لهوميروس مخيلة خصبة ومبدعة. ومع ذلك، فإن القارئ المنتبه للإلياذة لا يحسّ في أية لحظة بشعور الدخول إلى عالم تخيّلي بل إنه يستغرق في جوّ واقعي عميق، حيث يبدو كل تفصيل فيه تفصيلاً حقيقياً. فهل كان باستطاعة الشاعر أن يصف بمثل هذه الدقة أسلحة الأبطال الإغريق المعدنية، وخوذاتهم المصقولة ذات العرف المتعدد الألوان، ودروعهم المزخرفة، وحاميات أرجلهم ذات الأربطة الفضية، وتروسهم ذات الزخارف الفنية، وهو لم يرها كلها؟ إن وصف ترس أخيل بشكل خاص لا يمكن أن يكون نتيجة لمخيلة خصبة. فالشاعر الذي كان يصف أبسط تفاصيل الزخرفة وأدقها في المشاهد المشغولة بالمعادن المختلفة، لإعطائها الحياة واللون والحركة، كان عليه أن يرى بعينيه ترساً مشابهاً ليستطيع ذلك.



ترس أخيل كما أعيد رسمه وتخيله

أما بالنسبة لهينريش شليمن، فلا شيء يستطيع أن يزحزحه عن يقينه. كانت طروادة قد وجدت بالنسبة له منذ اللحظة الأولى التي حكى له فيها والده قصتها. كان لايزال يحتفظ بإيمان طفولته بكراً لم تمسّــه أية فكرة ثانية. وكان العائق الوحيد أمامه هو أن يحزر في أي موقع ستكون له أكبر الفرص المنطقية لاكتشاف المدينة.

كان القلائـل من أنصار نظرية وجود خرائب مدينة طروادة قد وضعوا فرضية مفادها أن المدينة توجد في نقطة ما على ساحل آسيا الصغرى، قرب قرية بونارباشي. وفي الحقيقة، أشار هوميروس في ملحمتـه إلى تفجّـر ينبوعين قريباً جداً من طـروادة، أحدهما حار والآخـر بـارد. والحالة هذه، يُحكـى أنه كان يتدفـق في بونارباشي تحديداً نبعان مشابهان.

ومـع ذلك، ما أن وطأت قدم شليمن أرضـ الشرق، ورأى أمامه سهـل «طروادة» الواسع، حتى كانت لمحة بسيطـة منه كافية ليتأكد مـن أن قريـة بونارباشـي هـذه لم تكن لتتوافـق أبداً مـع الوضعية الجغرافية لمدينة بريام. ذلك أنها بعيدة جداً عن البحر. فإذا كانت طـروادة تقع فيها، كما كان يأمل ويرى العلماء، فكيف كان الإغريق يستطيعـون الانتقال مرات عديدة في اليوم بـين السفن والقلعة، في حين أن مسير ثلاث ساعات كان يفصلهما. إضافة إلى ذلك، كانت هـذه الهضبـة أصغر بكثير مـن أن تخفي قصر بريـام الضخم مع غرفه الاثنتين والستين، والساحة المحصنة، وبرجي هكتور وباريس، والبوابة الضخمة التي أدخـل منها الإغريق حصانهم الخشبي إلى المدينة.

وإرضاء لضميره، بحث شليمن عن الينبوعين، ولم يكتشف اثنين فقط بل أربعةً وثلاثين، وكلهـا من المياه الباردة! وجعله ذلك يلتفت إلى جهة أخرى؛ فعلى بعد ساعة من الساحل. ووسط هضبة أكثـر



مشهد تخيلي لطروادة قرب ساحل البحر

اتساعاً وتسطيحاً، كانت ترتفع تلة تدعى هيسّارليك Hissarlik. وعندما اقترب شليمن منها، غمره إحساس داخلي بأنه على الطريق السليم. وكان العلماء في مثل هذه الحالة سيضعون النظريات والفرضيات، إلاّ أن طبيعة هذا المكان كانت تشدّ شليمن بشكل لا يقاوم. فأي صرح رائع كان يمكن أن يقوم على هذه الهضبة!

وسرعان ما برز دليل هامٍ ليؤكد انطباعاته الأولى التي ترجع إلى شكل الأكمة. ذلك أن شعباً، يشير المؤرخون إلى وجوده، كان قد سكن موقع هيسارليك في القرن السادس قبل الميلاد، وكانت مدينته تحمل اسم إيليوم الجديدة. فهل تراهم اختاروا لها هذا الاسم كذكرى لمدينة أقدم، هي مدينة إيليون Ilion الطروادية الشهيرة؟

طلب شليمن الإذن بالتنقيب فوراً من السلطات التركية. وسرعان ما استخدم العمال واستقدم المعاول والمجارف والنقالات. وفي نيسان من عام ١٨٧٠ بدأ الأعمال رسمياً.

ولم يتطلب الأمر انتظار وقت طويل للاستنتاج بأن الطبيعة كانت تحقّ شليمن. فالرومان، الذين بدأت مدينتهم المهدمة تظهر تحت سطح الأرض ببضعة سنتمترات، لم يكونوا الوحيدين الذين قدّروا القيمة الدفاعية لهذا الحصن الطبيعي. وبعد فترة وجيزة ظهرت تحت بقايا نوفم - إيليوم أنقاض أخرى. وظهر بأن المدن تتراكم فوق بعضها بعضاً، إلاّ أنه لم يكن من الممكن بعد إحصاء المساكن المتراكمة على الأكمة بدقة.

وكتب شليمن من هيسارليك وهو لا يستطيع إخفاء فرحه: "لقد وجدت أنقاض قصر ومعابد على جدران أبنية أقدم منها بكثير، وعلى عمق خمسة أمتار، وجدت جداراً ضخمة تصل سماكتها إلى مترين وقد رتبت حجارتها ونسّقت بشكل متميز. وعلى عمق مترين ونصف المتر تحتها، اكتشفت أنها ترتكز على جدران أخرى تصل سماكتها إلى ٢,٨٠م. ولاشك أن هذه الأخيرة يجب أن تكون جدران قصر بريام أو جدران معبد مينرفا».

لكنه حتى ذلك الحين لم يكن قد اصطدم إلاّ ببدايات اللغز الأولى. وكلما كان يعمّق الحفر أكثر، كانت المسألة تزداد تعقيداً، وكان شليمن الذي يأمل بنبش طروادة يكتشف ما هو أكثر من ذلك بكثير. فتلة هيسارليك كانت تخفي منجماً آثارياً! إذ لم تكن توجد تحتها مدينة واحدة. ذلك أن الحضارات كانت قد تعاقبت على هذه الهضبة، بعد أن ردمت كل منها آثار العصور السابقة لها.

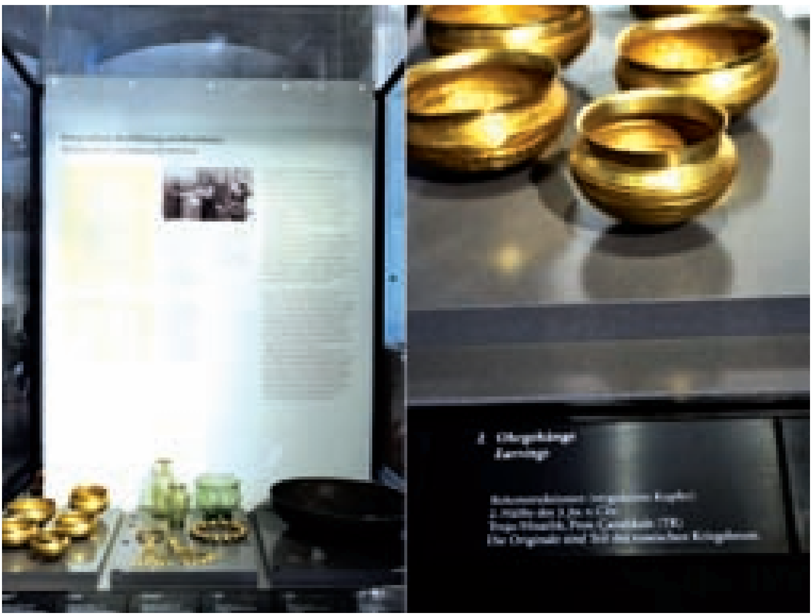


رسم قديم يمثل شليمن في حفرياته في طروادة

وبشكل بديهي، لم يمنع مشهد الخرائب مهاجرين جدداً من القدوم إلى هيسارليك. ويمكن تفسير ذلك على النحو التالي: فقد كانت قرون طويلـة تفصل أحياناً دمار المدينة الأولى ووصول بنائين جدد. وخلال هـذا الفاصل الزمنـي كانت أمتار من الغبـار المتراكم تمحو الماضي. وكان ينسى اسم الشعب الذي سقط، لتولد أسوار جديدة على أنقاض الأسوار القديمة، ولتشهد بدورها الدمار والسقوط.

وبمـرور الأيـام، كانت نتائج الحفريـات تصبح أكـثر فأكثر أهمية. وكان المنقّبـون يكتشفون حيناً برجاً مقدونياً، وحيناً معبداً للإلهة أثينا، ثم أسلحـة غريبة، وأوثاناً منحوتة بشكل خشـن، وكؤوساً من نمط غير معروف حتـى ذلك الوقت. إن اكتشاف مدينة مطمـورة أمر مثير حقاً. لكـن ما هو أكثر إثارة منه، والنصر الذي لا مثيل له هو اكتشاف المدينة نفسهـا التي وصفها هوميروسـ في أشعاره، هذه الأشعـار التي سحرت الإنسانيـة خلال مـا يقارب ثلاثـة آلاف عـام! وعندما عُـرف على مرّ الوقت، مع حصول أبحاث دقيقة ومتأنية، أن التلة كانت تضم سبع مدن متوضعة فوق بعضها بعضاً، ثم تسع مدن، ثم أكثر من ذلك أيضاً، باتت الدهشة عامة وشاملة.

وأصبحت هيسارليك قبلة علماء العالم قاطبة. وليس العلماء فقط، إذ إنَّ كل إنسان مثقف كان يشارك بموجة الاهتمام والدهشة التي سبّبها هذا الاكتشاف. وكانت طروادة تمثل للجميع أكثر بكثير من مجرد مدينة قديمة. ذلك أن الجميع كان قد تعلم قراءة قصص هوميروس، هذا الكتاب المفضل لدى مفكري العالم الغربي منذ أجيال كثيرة.



بعض المكتشفات التي عثر عليها شليمن

في طروادة

ولكـن إذا كانت توجـد عدة مدن منضّدة فـوق بعضها بعضاً في هيسارليـك، فأي منها كانت مدينة بريام؟ تلـك كانت المسألة التي واجهـت شليمن، والتـي كان عليه أن يحلها. كانـت خرائب المستوى الأعلـى هي دون أي شـك خرائب مدينة إيليـوم الرومانية. وبالمثل، كان يمكـن التأكيـد بشكل يقيني أن أناساً عاشـوا في غابر التاريخ، لم يعرفـوا استخدام المعدن إنما استخدموا فقط الأدوات والأسلحة الحجرية، كانوا قد شغلوا الطبقة السفلى، تلك التي كانت تظهر في أعمق مستوى مباشـرة فوق الأرض البكر. ومابين هاتين الطبقتين، كانت المسألة لا تنفك تتعقّد.



مخطط يبيّن طبقات المدن المتعددة في موقع طروادة

ووقــع شليمن في الخطأ... فقد حكم بــأن المدينة الثانية، ابتداء مــن الطبقة الدنيا، أي المدينة التي كانــت تأتي مباشرة فوق منجم العصر الحجري، يجب أن تكون تلك التي يبحث عنها، فقد وجد في هذه الطبقة، بعد ثلاثة أعوام من افتتاح الأعمال في الموقع، جدراناً سميكــة مع بوابة ضخمة. وداخل هــذا السور، كشفت خرائب قصر عــن أدوات ذات أهمية مميزة. وكانت الجدران تحمل دون أي خطأ ممكن آثار حريق، واعتبر شليمن هذا الأمر أنه دليل حاسم. كذلك ظنّ أنه تعرّف على «قصر بريام»، وعلى «البوابة الكبيرة».

مــع ذلك، فإن مخطــط وأبعاد المدينة لم تكــن لترضي توقعاته. فهــذه الطروادة كانت صغــيرة جداً بالنسبة للوقائــع العظيمة التي تذكرهــا الإلياذة، لكــن شليمن فسّر هذا الاختــلاف بافتراضه أن هوميروس كان قد بالغ في الوصف الشعري.

كنــز بريــام

والحق أن شليمن كان يشعر ببعض الإخفاق على الرغم من هذه النتائج المذهلة. فخلال ثلاث سنوات من التنقيب، كان قد حفظ في أعماق نفسه الأمل باكتشاف ثراء طروادة الخرافي، حيث كان يلتمع فيما مضى الذهب والبرونز. وكان قد نبش نصف المدينة القديمة، التــي جمعت ما يملأ متحفاً بالقطع القديمــة النادرة جداً، لكنه لم يجــد غراماً واحداً من الذهب في الــ ٢٥٠٠٠٠م٣ من الأنقاض التي

كان قـد نقلها خلال ثلاث سنوات من العمل المستبسل بمساعدة ما بـين ١٠٠ و ١٥٠ عاملاً. وهكذا لم يعد شليمـن يستطيع الاستمرار. فقد استنفذت قواه صعوبات العمل والمناخ وعدم توفر وسائل العيش المريـح، مما حدا بـه إلى وضع تاريخ نهائي لإقامتـه في هيسارليك يوم ١٥ حزيران ١٨٧٣.

وفي عشيـة الانطلاق بالذات، في اللحظة التي كان سيتوقف فيها عـن الحفر في هـذا الموضع، توصـل شليمن إلى غايتـه. كان يعمل منـذ الصباح الباكر مع زوجـه - كان قد تزوج من فتاة يونانية شابة - على عمـق أكثر من تسعة أمتار مع بعض العمال على امتداد جدار السور القريب من «قصر بريام». وفجأة لاحظ شليمن قطعة غريبة الشـكل، وهـي تشبه نوعاً مـن الآنية النحاسية، كانـت تلتمع تحتها مادة يسهل التعرف إليها! إنها من الذهب حقاً!.

وأخـيراً بدا أن تكهناته تأكدت وأصبحت يقينـاً. إلاّ أنه كان من الضروري عدم لفت انتبـاه العمال، وإلاّ فإن كل شيء كان سيختفي فيمـا لو ذاع السرّ وانتشر. ولهذا طلـب شليمن من زوجته أن تجمع العمال بسرعة وأن تصرفهم بقية النهار مختلقة لهم أي عذر كان. وطلـب منها أيضاً أن تتـزود بقطعة قماش. وبعـد أن نفذت أوامره عادت إليه متلهفة.

كان أثنـاء هذا الوقت قد شرع دون إبطاء بالحفر بشكل محموم بواسطـة سكينه حول الآنية النحاسية. ولم يكن سهلاً عليه الوصول

إلى مبتغـاه. إذ كان يجلس القرفصـاء أسفـل طبقـة ضخمة من الرماد والأنقاضـ المتكلسة بثخانة ١٦٠ سم تقريباً، وكانت تدعمها تحصينات يصل ارتفاعها إلى أكثر من ثلاثة أمتار، وهي مؤلفة من حجـارة ضخمة ومن طين. وكان على شليمن أن ينقّب الجدار الذي كان يهدده في كل لحظة بالانهيار فوقه.

واستطـاع أخيراً أن يمّد يده في الثقب الـذي حفره، وأن يسحب مجوهـرات الكنـز قطعة قطعـة. وكانت هـذه القطع تتألـق بضياء



باهر! وكان يبدو أن قيمتها لا تقدر بثمن! إلاّ أن الوقت لم يكـن وقـت الحسـاب والتخمـين... وسرعـان ما جمـع الزوجـان بشكل عشوائي كافة هذه الروائع فـوق قطعـة القماشـ، وحملاهـا بأسرع ما يمكن إلى كوخهما الخشبي.

وهنـاك، بعيـداً عـن الأنظار الفضولية، استطاعا أخـيراً أن يتفحصـا مـا وجداه. وكانت لحظة مليئة

بالانفعال عندما أحاط شليمن عنق زوجته بالسلاسل الذهبية وعلق الأقراط بأذنيها، ثم عندما وضع على رأسها الإكليل الذي ربما كانت هيلين قد حملته ذات يوم! وهاهو، ابن أحد القساوسة الفقراء في ألمانيا البعيدة، ينبش بيديه هاتين، على أرض طروادة نفسها، ما كان يعتقد أنه كنز بريام. وبعد مرور دقائق الانفعال الأولى، قام الزوجان بجرد القطع



زوجة شليمن
تزينها القطع الذهبية في طروادة

بانتباه ودقة. وكان الكنز يتألف من تاجين ذهبيين. شغل أحدهما من تسعين سلسلة ذهبية. ومن ١٢٢٧١ خاتماً، ومن ٤٠٤٤ صفيحة، ومن ١٦ تمثالاً صغيراً، ومن ٢٤ عقداً ذهبياً، ومن أقراط وأزرار وإبر ولآلىء بحيث يشكل مجموعها كلها ٨٧٠٠ قطعة ذهبية. وإضافة

إلى ذلك كله هناك بضعة كؤوس، وكأس ذهبية واحدة، وكأس من الالكتروم (خليطة بنسبة ثلاثة أرباع من الذهب وربع من الفضة)، وكأس من الفضة إضافة إلى زجاجة من الذهب.



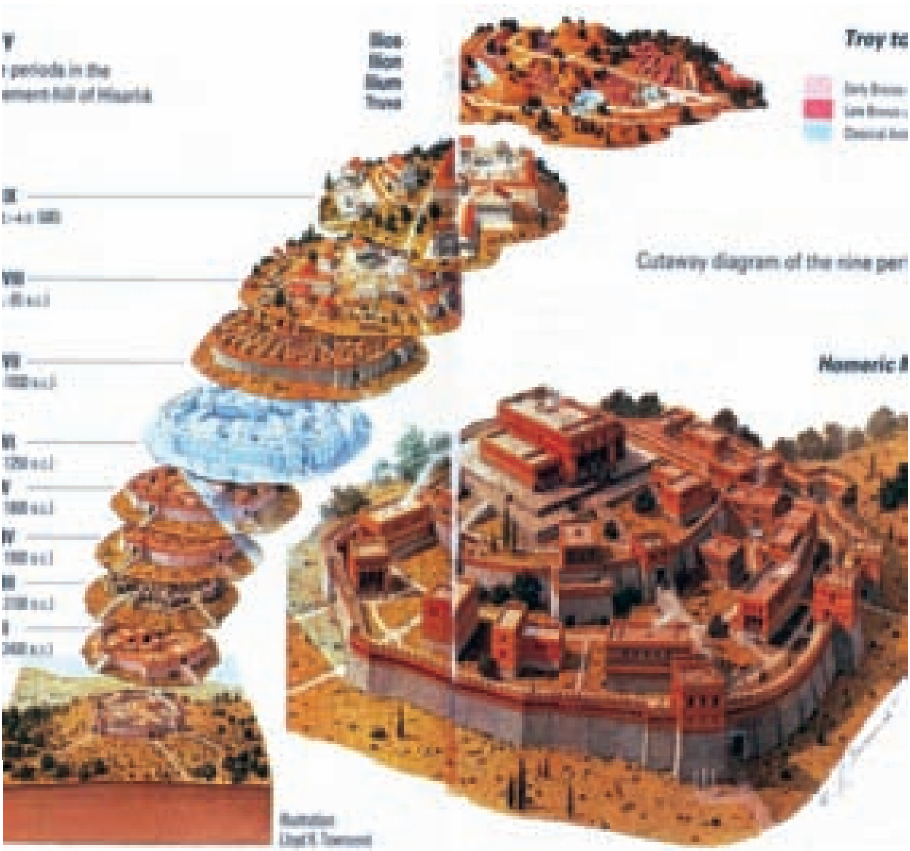
جانب آخر من الكنز الذي اكتشفه شليمن

ترى، كيف سقط هذا الكنز إلى هذا الموضع؟ سرعان ما وضع شليمن نظرية لتفسير ذلك. فقد وجد المجوهرات مجمعة في كتلة

متراصــة علــى شكل متــوازي مستطيلات. أفلا يشــير ذلك إلى أن صندوقــاً كان يحتويهــا؟ ولا شك أن هذا الصنــدوق، الخشبي على الأرجــح، كان قد تفتــت إذ احترق طابعاً الكنــز بشكله. ويثبت هذه الفرضية مفتاح نحاسي اكتشف إلى جوار الكتلة.

اعتقــد شليمن أنه كان يستطيع إعادة تشكيل الوقائع بدقة. ففي حــين كانت طروادة تحترق، وضــع أحدهم وهو في عجلــة من أمره الجواهر في الصندوق وأقفــل عليها، ثم حملها معه دون أن يسحب المفتــاح منه لتعجلــه. وعند وصوله للأسوار، أو ربمــا إذ أحاطت به النــيران أو أحاط به بعض الأعداء، تــرك حمله الثمين، الذي طُمر مباشــرة تحت طبقــة من الحجارة والــردم المتساقط مــن القصر المجاور، وكان علو هذه الطبقة بين متر ونصف ومترين.

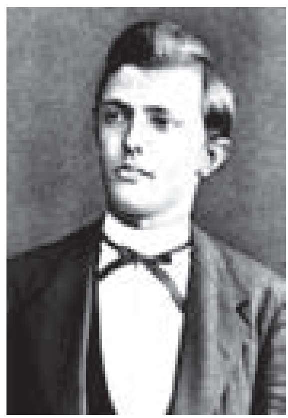
إلاّ أن شليمــن نفســه ترك هــذه النظرية المعقولة جــداً، عندما اكتشف كنــزاً آخر على بعد بضعة أمتار مــن الكنز الأول، ثم ثلاثة كنــوز أخرى أيضاً قــرب جدران القصر الملكــي. واستنتج من ذلك وبشكل حاسم أن أحداً لم يكن يحاول إنقاذ هذه الكنوز، وأنها وقعت بشــكل طبيعي خلال الحريق إلى هــذه المواضع من الطابق الأول في القصر.



أشكال المدن المكتشفة في موقع هيسارليك حيث اعتقد شليمن أنه اكتشف طروادة التي تحدث عنها هوميروس. وقد أبرزت هنا المدينة السادسة التي يعتقد العلماء أنها طروادة الفعلية.

ولكـن أيـاً كان سبب وجـود المجوهرات على طول الجـدار، فإن شليمـن لم يشـك أبداً بـأن مالكهـا كان الملك بريـام، وكان يعتقد بأن هــذه كانت ثرواتــه ومدينته وقصره. ولم يكـن هناك ما يمكن أن يجعلــه يشك بأنــه كان يحمل بيديه الجواهــر نفسها التي كانت تزيــن فيما مضى «الوجه الــذي أطلق على البحر ألف مركب وحرق أبراج إيليون التي تناطح السحاب». ومات شليمن وهو يعتقد جازماً بأنه وجد الجــدران التي كانت قد ألهبت مخيلته عندما رآها للمرة الأولى في كتاب «التاريخ العالمي لجرّر».

وبعــد ثلاثة أعوام فقط من موتــه، تم التشكيك بتصوّر شليمن؛ وســاد الاعتقاد بين البحاثة أن المدينة السادسة، ابتداء من الطبقة الدنيــا، كانت هي طروادة حقاً. وكانت هذه المدينة قد فاتت شليمن إذ أن الرومــان كانوا قد مهّدوها تحديداً في هــذا الموقــع بعــد أن هدموهــا لبنــاء الإيليــوم. وبالتــالي كانــت طــروادة قــد اختفــت تماماً، إلاّ في إحــدى زوايا منزل وعلــى امتداد ســور، وهما يعزيــان لسوء الحــظ إلى المقدونيــين.إلاّ أن أخطــاء شليمــن لا تقلــل أبــداً مــن قيمــة عمله. ويعــود الفضل الأكــبر لشليمــن ولإيمانه الــذي لا يتزعزع بهوميروســ في بعث عالم



فيلهلم دوربفيلد

الطرواديين الضائع، أكثر مما يعـود لحماس دوربفيلد Dorpfeld الـذي جاء بعده والـذي اكتشف المدينة السادسـة، أو مما يعود إلى بلجين Belgen الذي برهن، وبشكل حاسم على ما يبدو، أن المدينة AIII هي طروادة التي غناها هوميروس.

قبر أغاممنون

كان اكتشـاف كنز بريام أمـراً يمكن أن يرضـي أي إنسان آخر غـير شليمن. لكـن هـذا الإنسان الـذي كان قد نجـح، في تعطشه للمعرفـة، بإتقان ثمـاني عشرة لغة أجنبية، مـا كان ليكتفي بحملة تنقيبات واحدة.

والحـق أن النتائج المذهلة التي حصل عليها في هيسارليك كانت قـد حققت مطمحه كعالم آثـار، ورغبته في بعث الماضي القديم بكل غنـاه. وكان شليمـن قد فكر بتنقيب ميكينا قبل فـترة من اكتشافه لـ«قصـر بريـام». وكان يضعهـا كقـارئ مثابر لـلآداب القديمة في مقدمـة الآثار التي كان يجـب نبشها. ففيها حكم أغاممنون، «ملك الملـوك» الذي قاد حملـة القادة الآخيين على طـروادة. وقد وصفها هوميروس بأنها «ميكينا الغنية بالذهب». بل إنها كانت أيضاً مسرح حـوادث دموية بين حـوادث أخرى كثيرة هامة. ففي ظـل أسوارها قتلـت كليتمنستر زوجهـا، أغاممنون، العائد منتصـراً من حصار طروادة، لأنهـا لم تستطع مسامحته لتضحيته بابنتهما للآلهة أملاً

بالحصول على ريح مواتية لانطلاق الإغريق. وتحكي سلسلة من القصص المأساوية القديمة هذه الحوادث المروعة، مساهمة في إشهارها كالإلياذة نفسها. وما كان ذلك إلاّ ليدفع بشليمن إلى ساحة البحث.

كان قد سبق له أن ألقى نظرة سريعة على خرائب ميكينا خلال زيارة أولى قام بها لليونان، وقرر منذ ذلك الحين أن يجرب حظه فيها. كانت ميكينا تبدو واعدة! فعلى الهضاب المجاورة لها كُشفت قبور كبيرة تحت الأرض على شكل خلايا. وعلى الهضبة الرئيسية كان يلاحَظ آثار سور كان لا يزال يصل في بعض الأماكن إلى ارتفاع ١٦,٥م. لكن آثار القصر كانت قد اختفت تماماً داخل هذه التحصينات. وكانت الرياح التي تعصف على الهضبة منذ آلاف السنين قد طمرت تحت الغبار والرمال الآثار الأخيرة، فيما اجتاحت النباتات الحرجية والصنوبرية بسرعة الموقع كله. وكان الرعاة اليونان الذين يحرسون قطعان خرفانهم في الجوار لا يعرفون شيئاً عن ميكينا أو عن آغاممنون.

كانوا يقولون لشليمن إن عمالقة بنوا هذه الجدران وهم يدلونه على قطع الحجارة الضخمة. ثم كانوا يشيرون إلى القبور التي على شكل خلايا قائلين إنها كانت الأفران التي يشوون فيها خبزهم. أما شليمن فكان يضحك ويقول لهم: «تلك أسوار ميكينا، وعلى هذه الهضبة كان يرتفع قصر أغاممنون. وكان الملك وجنوده يمرون تحت هذه البوابة ذاهبين إلى الحرب. سأرجع فيما بعد وسأبرهن لكم على قولي هذا»!



دوائر القبور (A) في ميكينا التي كشفها شليمن،
وقد كشفت دائرة أقدم (B) عام ١٩٥٠

ووفى شليمن بوعوده عند أول فرصة سنحت له. ذلك أن السلطات التركية أمرت بوقف وقتي للأعمال في طروادة، لأنها كانت تنازع شليمن على كنز بريام. فالجواهر التي اكتشفها الألماني فتحت عيونها، وجعلتها تخشى من احتفاظه بها لنفسه فمنعته عن متابعة أبحاثه.

وعندما بدأ شليمن حملة تنقيبات على الشاطئ اليوناني لم يكن يفكر حقاً باكتشاف قصر أغاممنون، وكان يأمل بالعثور على قبره قبل كل شيء. كان واثقاً من ذلك كل الوثوق، إذ أن التقليد يؤكد بأن قبور الأمراء الأقوياء كانت تحوي كنوزاً، وقد صدَّق شليمن هذا التقليد كل التصديق منذ نجاحه اللامع والذي لا يصدّق في طروادة. وكان يريد أن يبرهن للعالم كله ليس فقط أن أغاممنون كان قد وُجد، بل وإنَّه كان قد حكم ميكينا الثرية.

وكان علمـاء آثار تلك الفـترة يتساءلون كلهم حول قبر أغاممنون. وعلى الرغم من أن أبحاثهم لم تكن تتقدم أبداً، إلاّ أنهم كانوا واثقين أنهم على الطريق الصحيح. وكانوا جميعهم يؤكدون بأن القبر يجب أن يوجـد خارج أسوار القلعة. لكن شليمن الذي اعتمد على سرد للرحالة الإغريقـي بوزانيـاس كان يعتقد عكس ذلك. وللمـرة الثانية عارض شليمـن الاعتقاد السائد بين العلمـاء، ولم يكن ليشك بنفسه أبداً هذه المـرة. وكان لديه الدليـل الساطع على أن محاكمتـه الخاصة وإيمانه بهوميروس كانـا يقودانه بالاتجاه الصحيح وبشـكل أفضل من غيره. وهكـذا سرعان ما دفعه حماسـه المعتاد إلى القيام بالتحضيرات وإلى إعـداد العمال. وفي آب من عام ١٨٧٦، أمر بحفر بئر على مساحة ٣٧ متراً مربعاً داخل السور على بعد نحو ١٣م من «باب اللبوتين» الفخم.



بـاب اللبوتـين

وواتــى الحظ شليمن في هذه المرة أيضــاً. فبعد فترة وجيزة من افتتــاح الأعمال، كشــف العمال عن صفين مــن البلاطات المنحوتة بعناية، والمنصوبة بحيث تشكل حلقة خاصة. ولم يكن شليمن يتوقع ذلك أبداً، مما أعطاه أكثر من أي وقت مضى اليقين بأن حزره كان صائبــاً. وتخيّل أنــه اكتشف دائرة الحجــارة المصقولة جيداً، حيث كان حكمــاء المدينــة يجتمعون، كمــا كان مرسوماً علــى درع أخيل؛ ثــم بدأت تسيطــر عليه فكــرة أن أغاممنون كان يرقــد وسط هذه الحجارة المنصوبة.



مدخل قبر دائري في ميكينا

وجاء اكتشاف جديد ليدعم يقينه. وهو يتعلق بمذبح يشير بالتأكيد إلى وجود القبور في الأرض. أولم تكن التضحيات تقدم للموتى على مذبح تحديداً؟ وفي الحقيقة، وكما توقع شليمن تماماً، ظهرت على عمق متر إضافي، وعلى عمق كلي عن سطح الأرض بلغ سبعة أمتار ونصف المتر، قمم القبور الخمسة من الحجر المنحوت.

وصرف شليمن مباشرة العمال. وحدها زوجته شهدت الحدث، وبما أنها كانت أصغر منه وأكثر رشاقة، فقد أوكل لها المهمة الصعبة بإتمام التنقيب. وهكذا ظلت صوفي شليمن راكعة مدة خمسة وعشرين يوماً، لا تستعين إلاّ بمدية، تنحت وتكشط بعناية فائقة جدران القبور لتخلصها من التراب الذي كان لا يزال يغطيها. وكان الاثنان ينتظران رؤية الروائع! ولكن عندما تم فتح المدافن الخمسة، تبيّن أن محتواها كان يتجاوز بدرجة كبيرة أكثر آمالهما جنوناً.

كان أكبر هذه القبور، وهو القبر الرابع، يحوي خمسة هياكل. أما أصغرها فكان يحوي جثماناً واحداً. وإلى جانب هذه الهياكل تكدست كتل ضخمة من الأدوات الذهبية. وكان أول قبر فتحه الزوجان قد سرق جزئياً خلال عصر قديم. ولم تعد الأسلاب في الوسط تظهر بكامل فخامتها، إلاّ أن بعض القطع الذهبية التي كانت تلمع بين الرماد والحطام تشهد على الغنى المختفي. وكانت الجثتان الباقيتان لا تزالان تحملان قناعيهما الذهبيين على وجهيهما، وواقيتين للصدر من الذهب وسواعد للدرع وأحزمة من الذهب. وكإشارة على رفعة رتبتهما، كان أقرباؤهما قد زودوهما



هينريش شليمان وويلهلم دوربفيلد أمام بوابة اللبوتين
في ميكينا عام ١٨٨٥

بما يكفي لدرء مخاطر العالم الآخر. فقد وضعوا حولهما ستين سيفاً وخنجراً، شغلت مقابضها بشكل رائع، إضافة إلى سكاكين وحراب وفؤوس حرب. وفوق ذلك كله، كانت أقداح ذهبية وفضية،

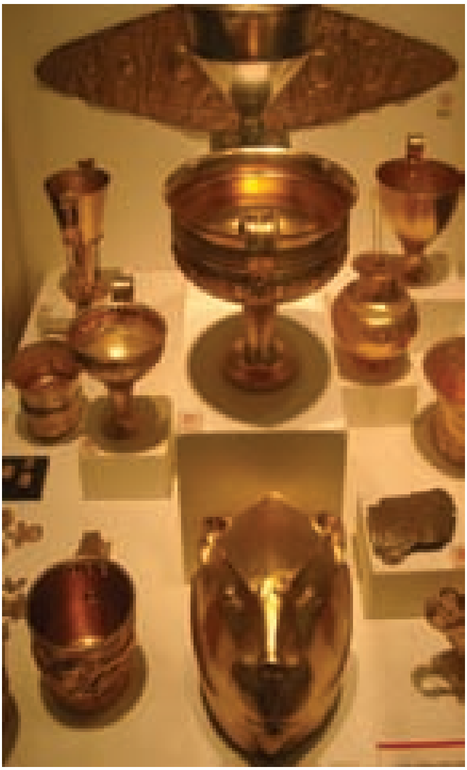
وصفائـح وأزرار ذهبية، ولآلـىء مـن العنبر وآنية من المرمر، ترافق هؤلاء المحاربين النبلاء إلى العالم الآخر.

وكان القبر الثاني يحوي إضافة إلى القطع الثمينة ثلاثة أكاليل. ومع ذلك فإن روعتها المميزة لم تكن لتكشف للزوجين عما سيكشفه المدفن الثالث. ففي هذا القبر كانت الهياكل (لنساء فقط) محملة بالذهب وبالجواهر بما تعنيه هذه الكلمة حرفياً. وقد كشف إضافة إلى الخواتم والأساور والعقود والأكاليل والأقراط عن سبعمئة ورقة ذهبية مزينة بالثعابين والفراشات والأزهار والحلزونات، وعن قطع أخـرى كثيرة من الذهب على شكل عنقاء خرافي وأيل وأسود ونساء تداعـب الحمام. وكانـت إحدى الجثث تحمل تاجـاً، وكان قد وضع بجانبهـا صولجانـات كثيرة من الفضة المذهبـة وهي ذات مقابض من الكريستال الصخري.



بعض السيوف والخناجر التي وجدها شليمن في ميكينا

وأرسـل شليمـن متهلـلاً البرقيـات إلى كل مـكان، معلنـاً عـن اكتشـاف ما كان يدعوه «سرداب الدفن»، لملـك اليونان وإلى رئيس الـوزراء وإلى مدير صحيفة اللندن تايمـز وإلى إمبراطور البرازيل الـذي كان، أثنـاء زيارة حديثـة له إلى موقع التنقيـب، قد عبر عن ارتيابـه فيما يتعلـق بثروات الموقع الآثاريـة. إلاّ أن هذا الجمهور لم يكن يكفيـه. كان يريد أن يعرف العالم كله ماضي ميكينا، وكان كل يوم تقريباً يرسل إلى اللندن تايمز مقالات وتقارير طويلة.



وفي أثنـاء ذلك كانت الكنـوز تتراكـم. وكانت السلـة التي تجلـب فيها صوفي شليمـن ثمرة يوم من العمل المثابر والمستمر تمتلـئ كل مساء بقطع لا تقـدر قيمتها، وكان يبدو أن القبـور التي فتحت لا تنضـب! وكتـب شليمـن إلى أحد أصدقائه: «لقد وجدت كنزاً لا يقارن من التحف والآنية المزخرفة والحلي، ومتاحف العالم

كلهـا لا تملـك مجتمعة خمس مـا وجدتـه». لكن شليمـن كان يثير اهتمامه بدرجة أعظم نوعية شغل المصاغ لا كميتها فقط. «يستحيل علـيَّ أن أعطيـك بالكتابة فكرة عن غنى زخرفـة هذه المجوهرات، كمـا أشار إلى أحد مراسليـه. ويمكن أن نعتقد بـأن الفنان أمضى أكـثر من خمسة أعوام في نقش مشاهـد الصيد والحرب التي تبدو وكأنها واقعية تماماً».



أحد الآنية المزخرفة التي وجدها شليمن في ميكينا

لم يشـك شليمن أبداً بأن دائرة الحجارة المنصوبة كانت تحيط حقاً بمدفـن الأتريديين أنفسهـم، أبناء الآلهة الذيـن تقاتلوا فيما

بينهم على حكم ميسينا. ولم يتردد أبداً بأن ينسب لأغاممنون أروع الأقنعة الجنائزية المكتشفة في القبور. وبالنسبة له، كانت مجوهرات هيلين تمّحى أمام القيمة التي لا تقدّر لهذا القناع الذي عوّض انتظاره، قناع أعظم ملوك اليونان القديمة.



القناع الذهبي الذي اعتقد شليمن أنه لملك الملوك أغاممنون

حضارة منسيّة

نعلـم اليوم أن شليمـن كان على خطأ. لقد ارتكـز على مصادر إغريقية من الفترة المتأخرة، وبنتيجة حماسه العادي وإيمانه الذي لا يتزعـزع بهوميروس فقد اعتقد أنـه وجد قـبر أغاممنون. ومع مـرور الوقـت، أثبت العلمـاء أن هذه القبور كانـت ترجع إلى قرون كثيرة سابقة لحرب طروادة... أي قبل أغاممنون. ولكن من وجهة نظـر آثارية كان شليمن قد قام بـأول خطوتين باتجاه بعث حضارة منسية.

فقـد اجتاح علمـاء الآثار بعد شليمـن اليونان. وقامـوا بتنقيب كافـة المواقـع الممكنـة وقلبوهـا رأساً علـى عقب، يدفعهـم فضول أثـاره اكتشاف القبور الملكية. وكان العلمـاء الألمان ينتقدون شليمن ويسخرون منـه. بالمقابل كانـت إنكلترا تكنّ نحوه إعجابـاً أصيلاً. أولم يبـين أنـه قبل ولادة تاريخها، كان ثمـة حضارة هامة مزدهرة في اليونـان؟ وبالتالي كان يجب بالضرورة الاستمرار في الحفر وفي التنقيب، وفي استكشاف أماكن أخرى. وكانت أرض القلاع المجاورة لميكينا لابد وأن تخفي مدناً منسية كثيرة، وبقايا مدهشة أخرى من هذا العالم الضائع.

وكان شليمن من جهة أخرى يشاركهم وجهات النظر هذه نفسها، وبينمـا كان منافسوه يحفرون بشـكل محموم، إنما دون أن يكتشفوا سوى آثـار من العصور الكلاسيكية، حـاول على الرغم من تجاوزه

الستين من عمره بسنتين القيام بمشروع جديد. ووطد العزم على «مهاجمة» حصن تيرنثا.



مشهد من موقع تيرنثا

وكان علماء الآثار يعرفون موقع تيرنثا منذ أكثر من قرن، إلاّ أن أحداً منهم لم يكن قد اهتم بأن يجري فيه أبحاثاً معمَّقة. وفي الحقيقة، كانوا جميعهم يعتقدون بأن أبنيته ترجع إلى العصور الوسطى، وقد خدعتهم آثار حريق على الجدران. ومرة أخرى كان إيمان شليمن بالنظريات محقاً، إذ كان قد قرأ أن تحصينات تيرنثا القديمة كانت ضخمة، فقرر البحث عنها في هذا الموقع.

وحقـق شليمـن الانتصـار. فمنـذ الصيـف الأول، حـرّر عماله المستوى الكامل لطابق من قصر يعود لزمن هوميروس. وكان يتألف من باحات وأروقة وبوابات ضخمة. وكان ثمة سور مبني من حجارة ضخمـة يحيط بالقصر إحاطـة كاملة. وبمقارنـة القصر بالسور، كان القصـر يبدو صغـيراً جداً، وكأنـه مطمور خلف أسـواره التي كانت ثخانتهـا تصل في بعض الأماكن إلى تسعـة عشر متراً، حيث كانت قد بنيت داخلها غرف ومخازن.



جانب مما كشفه تنقيب تيرنثا

وكان تقدّم الأبحاث يعطي فكرة أكثر فأكثر وضوحاً عن غنى وروعة تيرنثا القديمــة. وكانت لا تزال بعض قطع الزخرفــة المعمارية قائمة هنا وهناك بين خرائب القصر، مثل إفريز من المرمر المعشق بعجينة زرقاء ورسوم جدارية متعددة الألوان. وتمثّل أكثر هذه الرسوم تميّزاً مصارعاً يتعلق بقرني ثور. وكان يبدو وكأن الحيوان يحمل هذا الرجل الجســور أثناء قيامه بالقفزة المميتة فوق ظهره. ولم يكن هنالك أحد في ذلك الوقت يستطيع فهم معنى هذا المشهد الغريب.

إلاّ أن هــذا الرســم كان النسخة الأولى من موضــوع أخذ يتكرّر مرات كثيرة خــلال الأعمال التالية. وبالمقابل، كانت نتائج تنقيبات القصر لا تترك أي مجال للشك. وكانت تثبت أنه قبل ولادة التاريخ اليوناني بفترة طويلة كان ثمة شعب مدهش يشغل بعض مواقع جزر البيلوبونيــز هذه. وربمــا كان هذا الشعب مستقــراً في المنطقة منذ آلاف السنين قبل أن يأتي الإغريق من الشمال ليجتاحوا البلد. فمن كان هؤلاء الذين بنوا ميكينا وتيرنثا؟ وأية صلات كانت تربطهم مع الإغريق؟ وما كانت الكوارث التي دمّرت مثل هذه الأسوار الهائلة؟

بعــد ذلك كشــف علماء الآثار عــدداً كبيراً من آثــار هذا الشعب الــذي لم يكن قــد عُرف بعد بشكل جيد، ولاحظــوا أن منطقة نفوذه وسلطانه كانت تمتد بعيداً إلى جنوب القارة اليونانية، حتى جزر بحر إيجــة. وتوصل العلماء إلى اعتبار جزيرة كريت مهد هذه الحضارة. وكانت بعض الأســاطير تشير إلى ذلك بوضوح من خلال إشــارات



خارطة توضح جزر البيلوبونيز والسيكلاد اليونانية
ومواقع إسبارطة وكنوسوس وطروادة وغيرها

كثـيرة إلى مينوس ملك كريت. وكانت تصفـه بأنه المشرّع العظيم، والملـك الفائـق القـوة، وتشير إلى امتـداد سلطانه بعيـداً جداً عن كنوسوس عاصمتـه. وكتب أقـدم كبـار المؤرخين الإغريـق حوله: «بحسـب معرفتنا، كان مينوس أول رجل يقـود أسطولاً بحرياً قوياً. وقـد ساد بشكل كامل على ما ندعـوه اليوم بالمحيط الإغريقي. وقد

حكـم جزر السيـكلاد حيث أرسـل أوائل مستعمريـه الذين طردوا الكاريـين، وأصبح أولاده حكام الجــزر». وكان المعماري الأسطوري ديـدال قد بنى من أجلـه اللابيرنث الشهـير، أي المتاهة. وبنى من أجل ابنته آريان ذات الضفائر الجميلة صالة للرقص.

وبعـد فترة طويلـة من هرب آريان مع البطـل ثيسي، وهي قصة سوف نعـود إليها، عرف ملوك كريت كيـف يبسطون سلطتهم. أما يذكـر هوميروس أن أحد أقوى القادة الذين حاربوا في طروادة كان إيدومين ملك كريت؟

عندمـا التفت العلماء نحو موقع كنوسوس القديمة التقليدي، لم يتوقعـوا أن يستخرجوا منه الكثير. ولم يجـدوا إلاّ بعض الأساسات المهدمة لبعض الملاجئ الرومانية. ومع ذلك، كان ثمة في هذا الموقع تلـة عجيبة تدعى باليونانيـة «رأس السيد النبيـل». وعلى قمة هذه التلـة كانت توجد بعض الجدران المهدمـة، كانت مبنية من حجارة ضخمـة من الجبس مغطاة بإشارات كتابـة من نمط غير معروف. وكانـت هذه الخرائـب قد استرعت اهتمـام بعض البحاثة. وكان شليمـن نفسه قـد انجذب إلى هذه التلة، وحصـل من حاكم كريت علـى الإذن بمتابعـة أبحاثه على الجزيرة. لكـن مالك التلة عارض بشـدة نبش أراضيـه. وقبل بأن يبيع الأكمة إنمـا بسعر باهظ. ومع أن شليمن كان يستطيع دفـع هذا المبلغ المجنون بسهولة، لكنه تردد

في ذلـك. وبعـد مفاوضات كثيرة دامت قرابة العـام، أي حتى فترة قصيرة من وفاته عام ١٨٩٠، تغلبت روحه التجارية على شغفه بعلم الآثار. ولم يعش شليمن طويلاً ليعلم أنه فقد مغامرة كانت ستضيف زخرفاً رائعاً إلى تاجه كعالم آثار.

ولكن كان يجب انتظار عشـرة أعوام أخرى بعد شليمن ليكشف «رأس السيد النبيل» عن أسـراره أمام غارات المعـاول والمجارف، وليثبـت بشكل قاطع دور كريـت في التاريخ. فكمـا كانت الحكايات الشعرية توحي بذلك، كانت الجزيرة هي جذع الشجرة التي تفرعت عنهـا ميكينا وتيرنثا. وفي نهاية القرن التاسع عشر وصل إلى كريت إنكليزي نبيل، خبير بعلم الآثار الإغريقي. وقد جاء إلى كريت ليجمع منهـا نماذج عن كتابة غامضـة كان يبحث عن أصلها. والحق يقال إن الكتابة الكريتية كانت الحجة التي قدمها السير آرثر إيفانز. أما في الحقيقـة، فإن أساطير مينوس وديدال واللابيرنث كانت تجذبه بشـكل لا يقـاوم إلى هذه الجزيـرة. لكنه ما كان يجـرؤ على البوح بذلك. غير أنه ما أن وطئ أرض الجزيرة بقدميه، حتى حدّد هدفاً أساسياً عملياً لسفره؛ كان يريد أن يجمع من هذه الأختام الحجرية الصغـيرة، المنقوشة بالإشارات المجهولـة، والمختلفة عن الإشارات المصرية والحثية، بقدر ما كان قد جمع منها في أثينا.

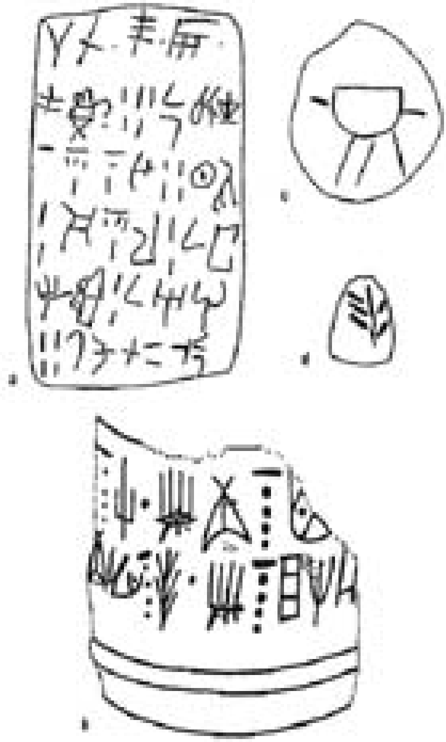


Fig. [illegible]. – Documents en linéaire A
a) tablette ; b) vase en pierre ; c) rondelle ; d) scelle.

نمط الكتابة الكريتية الخطية A

وخلال تجوله في كريت، لم يكن ليستطيع منع نفسه من الوصول يوماً إلى موقع كنوسوس القديمة، إلى «رأس السيد النبيل». وهناك،

أمام حجـارة الجبس الضخمة والتدوينات الغريبة المنقوشة عليها، نسي تماماً أختامه الحجرية. ورجعت إلى ذاكرته أساطير مينوس، واجتاحتـه رغبـة لا تقاوم بالتنقيـب. «ترى ألا نستطيـع أن نكتشف هھنـا قصر مينوسـ، وربما حتى اللابيرنث الفخـم نفسه؟»، ذلكم هو السؤال الذي طرحه إيفانز على نفسه بإلحاح!



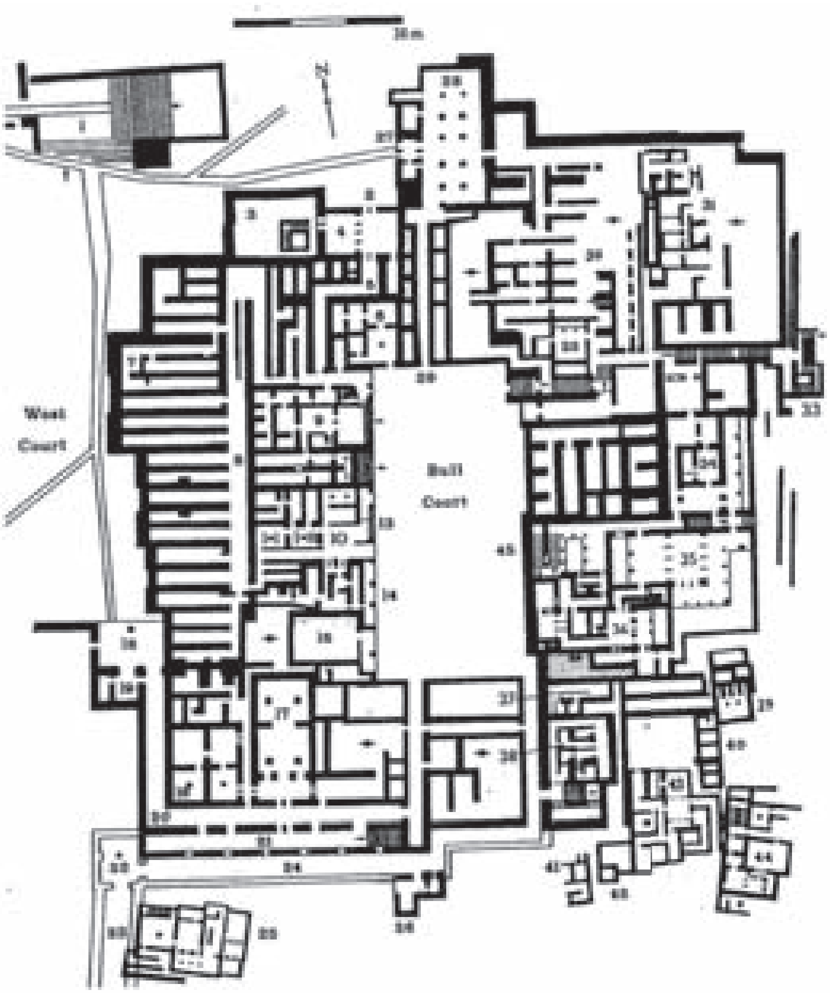
آرثر إيفانز وفريقه وبداية اكتشافهم لقصر كنوسوس

ولكن هذه المـرة أيضاً كان مالك الأرضـ الكريتي مصمماً على الدفاع عـن أرضه ضد أي مساس بهـا. واستمرت المفاوضات حول السعـر الـذي طلبه المالـك طويلاً. ومـع ذلك لم يكـن إيفانز يريد التنـازل من جانبه. وأخيراً تدبر الأمر بحيث يشتري الهضبة كلها، وفي عام ١٩٠٠ افتتح أولى حملاته في التنقيب.

قصر مينوس: المتاهة

ولم يتطلـب الأمـر انتظار وقـت طويل، إذ سرعـان ما تلاحقت الأحداث. فالخرائب كانت توجـد تحت بضعة سنتمترات فقط من سطـح الأرض، أو نصف مـتر على الأكثر، بحيـث إنَّ بضع ساعات من العمل كانت كافية لإعطاء نتائج باهرة. وظهرت في البداية آثار الأسـوار، وبعد تسعة أسابيـع من العمل تم تحرير بناء واسع، يغطي مـا مساحته أكـثر من هكتـار؛ وكان قصرا ميكينـا وتيرنثا يبدوان كقزمين أمامه!

وبعد عام من البحث والعمل والخبرة في هذا الموقع، أعلن إيفانز أن سنـة أخـرى إضافية ستكفي لنبش مجمـوع الأبنية. وهو لم يكن حتى ذلك الحين قادراً على التخيل بأنه سيستمر بالتنقيب والدراسة والترميم في القصر وملحقاته خلال أكثر من ربع قرن، وأنه سيأتي وقـت سيرى فيه الخرائب وقد اتسعـت لتشمل ثلاثة هكتارات تمتد من كل جانب!



مخطط قصر كنوسوس الممتدة على مساحة كبيرة
ويبدو واضحاً تعقيد بنائه وتوزع غرفه وممراته

ولم يكـن أحـد يعرف اسـم ملك هـذا القصر، لكـن إيفانز لم يـتردد بتسميته قصر مينوسـ، وبتسمية الشعب الذي عاش في تلك الفـترة بـ"المينوي". وكانت جملة هوميروس تسكن تفكيره: "وتوجد في كريـت كنوسوس، وهـي مدينة كبيرة، حكمهـا مينوس الصديق الحميـم للإلـه زيوس الكلـي المقـدرة". ولم يكن إيفانـز ليستطيع الشـك بهوميروسـ. وها هـو ذا، في موقـع كنوسوسـ القديمة، قد كشـف اللابيرنث الفخم الذي تحدثت عنه الأساطير القديمة. فهل كان مينوسـ هو حقاً اسم الملك الـذي بنى هذا القصر؟ أم أن هذا التعبـير كان يعني ببساطة "ملـك"؟ هذا إذا لم يكن هذا الاسم قد أصبح لقباً، مثل قيصر، الذي حملته سلسلة طويلة من الأسياد؟ أم أنـه أيضاً اسم آخر ملوك كنوسوس التي كان الإغريق يعزون إليها، مع إعجاب ممتزج بالخوف، مجد وعظمة هذه الحضارة التي كانت تتجاوز بدرجات وسائلهم الفظة والبدائية في المعيشة والحياة؟ كان إيفانـز يتأمل كافة هـذه الإمكانيات بانتظـار أن تنبعث من الأرض اكتشافات مفاجئة.

كان المخطط العام للأبنية يرتسم بوضوح فهو يشبه تقريباً شكل المستطيـل، وكانت مداخل أساسية تنفتح من الشمال ومن الجنوب. ومداخـل أخرى أقل أهمية من الشـرق ومن الغرب. وكانت مختلف أجـزاء القصر تتوضع حول باحة مركزية واسعة، بمساحة ٦٦ متراً طـولاً ونصفهـا تقريباً عرضـاً. أما أجنحة القصـر، ذات الأسقف المسطحة. فكانت تتألف من عدة طوابق.



جانب مرمم من قصر كنوسوس

حتى هذه النقطة كان كل شيء بسيطاً، لكن الأمر لم يكن مماثلاً بالنسبة للعمارة الداخلية. إذ كانت الغرف والممرات تتلاحق بشكل غير محدد، بحيث كان يبدو من الإعجاز على السائر فيها أن يجد طريق العودة. وكان أحد أقسام المبنى، وهو مبني على منحدر وعر، قد كشف عن الطوابق العليا وعن درجها المكون من خمس لفات حفظت جزئياً. وكانت كافة هذه الحجرات تتشابك وتتعقد ضمن شبكة لا يمكن الخلاص منها لتشكل متاهة حقيقية. وحتى إيفانز نفسه، بعد خمس وعشرين سنةً من الدراسات، وبعد أن أصبح يعرف كل سنتمتر مربع من الخرائب ويصفها بأنها «أبنية عملية وعادية»، كان يفهم هو أيضاً لماذا كان زوار كنوسوس يضيعون في القصر كما لو كان متاهة (لابيرنث).

كان هوميروس قد وصف كريت بأنها مثل البلد الواقع «وسط المحيط، غنية وجميلة، ومحاطة كلها بالمياه». وفي هذا البلد الخصب والسعيد، شيّدت قصور من طوابق كثيرة، منحوتة كما لو أنها حجارة كريمة. وكانت جدرانها الخارجية مغطاة بالجبس في بعض المواقع، أو مطلية بالجصّ، ومزينة غالباً برسوم مختلفة. وكانت هذه المواد البسيطة، إنما ذات النوعية الجيدة، تشع تحت الشمس الكريتية المحرقة.



إعادة تشكيل لقصر كنوسوس في جزيرة كريت
اعتماداً على الاكتشافات الأثرية لبقاياه.

أمـا في الداخل، فـكان كل شيء يشـير إلى الرفاهية والفخامة، وإلى نمـط حياة من مستوى رفيع جـداً. وكان إيفانز يستطيع تأكيد ذلـك بالنظر إلى حجـم المخازن وبيوت المـؤن. وكان جزء كبير من القبو يحتـوي على عشرات الصفوف من البثـوا، وهي جرار كبيرة الحجم! وكانت تزينهـا مواضيع جميلة بنقوش خفيفة البروز، وهي علـى الأغلب حلزونيات وحبليـات، مقلدة الحبال التـي كانت تنقل بواسطتها.



الجرار التي كان يخزن فيها الزيت في قصر كنوسوس

ويبدو أن الزيت كان يؤمن للأمراء المينويين المصدر الأساسي لعائداتهم. وكانوا يصدرونه عبر البحر إلى آسيا الصغرى بل وربما حتى مصر. وقام إيفانز بحساب كمية الزيت التي كانت تحفظ في هذه المخازن، وقدّر بأن سعة هذه الجرار كانت تصل إلى سبعين ألف ليتر! ولم يكن هذا الزيت ليمثل إلا جزءاً من المؤن المحفوظة في هذه المستودعات. وكانت قد أعدت حافظات في الأرض نفسها من أجل السلع الأغلى سعراً، وهي عبارة عن حفر مستطيلة الشكل مزينة بأشكال مختلفة. ومع أنها كانت فارغة عند اكتشافها، لكن العناية التي بذلت في بنائها كانت تشير بوضوح إلى أنها حوت فيما مضى قسماً كبيراً من ثروات الإمبراطورية الكريتية البحرية.

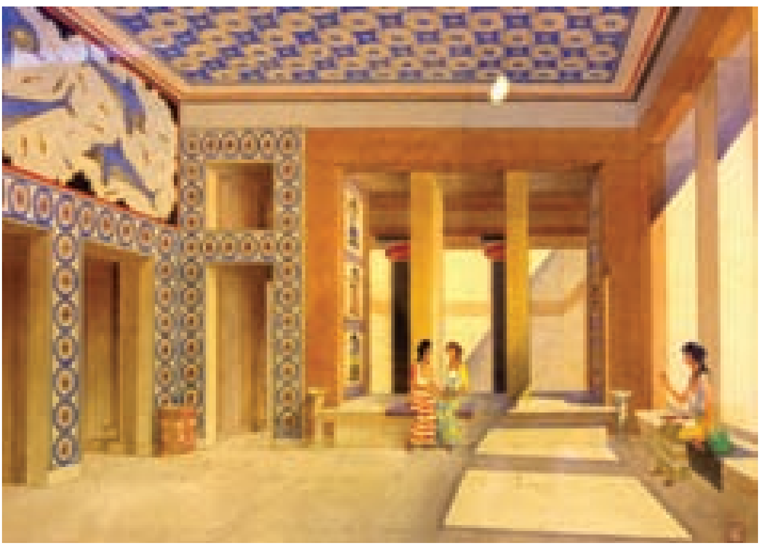


الجرار والحفر في الأرض حيث كانت تحفظ السلع

وفي غـرب القصـر كان ينفتح مـا يشبه ساحـة خارجية. ومما لاشك فيه أن الفلاحين كانوا يأتون إلى هذا الموضع، في ظل الأسوار العاليـة، لعرض محاصيلهم على سيـد كنوسوس. وربما كان قدماء المدينـة يجتمعون هنـا أيضاً للتشاور. وكانت هـذه الساحة الشعبية عند حـدود القصر تستخـدم كصلة وصل بين الأمـير وشعبه. وفي قلـب المبنى كانت توجد ساحة واسعة تجمع مختلف أجزاء القصر. وكانت الحجـرات المطلة من الواجهة الشرقية لهـذه الساحة تضم كافـة أنواع المشاغل التـي كان القصر يكتفي بفضلهـا ذاتياً. فكان يعصر الزيت ويصنع الجرار الخاصة به ويدهن الخزف، بل ويصنع كافـة الأدوات الحديدية التي يحتاجهـا. وكان هذا القسم أيضاً هو القسـم المنزلي من القصر، وكانت تديره الملكة. وكانت الملكة تشغل القسـم الأساسي من هذا الجنـاح الـذي كان، بأعمدته وبمقاعده المرتفعـة وبلوحاته الجدارية، يتجاوز روعـة المساكن الأخرى. وكان كل شيء يدعو إلى حيـاة سعيدة في هذا القصر. وكان ثمة منفذان للضـوء يؤمنان إضاءة غير مباشرة، وكانت الجدران تمتلئ برسوم تمثـل لعب الدلافـين في المياه ورقصات الصبايـا وأشكالاً حلزونية. ومقابل غرف الملكة كانت توجد غرف الأبهة المخصصة للاحتفالات السياسيـة والدينية، والتي كانت تنفتح على الواجهة الغربية للباحة الرئيسية.



نمط من التزيينات واللوحات الجدارية التي وجدت في كنوسوس،
هنا من غرفة الملكة الأم.



ويشكل اكتشاف غرفة العرش في هذا الجناح الغربي مرحلة مثيرة من التنقيبات في كنوسوس. كان إيفانز يستشعر بأنه سيكتشف شيئاً خاصاً عندما اصطدمت معاول العمال بالجزء الأعلى المرتفع من ظهر العرش المحفوف بأكاليل الزهر ، وكان كله من الجبس. وهكذا أخذوا يحفرون متعجلين حوله لتحريره. ولم يكن ثمة شيء قد تغير. كان المقعد الكبير يستند كما في الماضي إلى الحائط. أما المقاعد التي كان يجلس عليها كبار الموظفين فكانت تحيط به من الجانبين وتمتد على طول جدران الحجرة الثلاثة. أما الجدار الرابع فكان ينفتح على غرفة إضافية كانت السجن، والستائر تفصلها عن حجرة العرش أثناء الاحتفالات. وكان حطام بيثوا (جرار) كبير وبعض آنية إراقة الخمر يتناثر على الأرض. وكان ثمة فتحة في الجدار المواجه للغرفة الملحقة تقود إلى قدس الأقداس، وهو غرفة داخلية يرتفع فيها مذبح مخصص للإلهة الكريتية الكبيرة.

كانت الحجرة التي كان يوجد فيها العرش صغيرة وبسيطة، لكن إيفانز حزر دون صعوبة تذكر بأنها كانت تشكل فيما مضى مثالاً لطيفاً ورائعاً، وكانت جدرانها لاتزال تحمل آثار رسوم ذات ألوان ساطعة، وعلى الأرض كانت تلتمع وسط الأنقاض كسر مواد زخرفية مشرقة، كأوراق ذهبية وبورسلين بلوري وأخضر ولازورد.



قاعة العرش في قصر كنوسوس
ونلاحظ شكل العنقاء على الجدار مع الزخارف

وأُخـذ إيفانز كعالم آثار بروعة جو الغرفة، فأراد أن يحييها كما كانت. فكلَّف فناناً موهوباً بترميم الرسوم، وبفضل تعاونهما الوثيق نستطيع اليوم أن نتأمل بإعجاب الحجرة كما أحبها الملك الذي كان يجلس على عرشها، وكان ثمة إفريز يزين الجدران من مستوى المقاعد وحتى السقف. وهو يتألف من نقوش لعنقاء مغرب بألوان حيوية يعلوها مشهد صخور. وكان يحمي كل جانب من مدخل معبد الإلهة الكبرى عنقاء مغرب (وهو حيوان خرافي نصفه أسد ونصفه

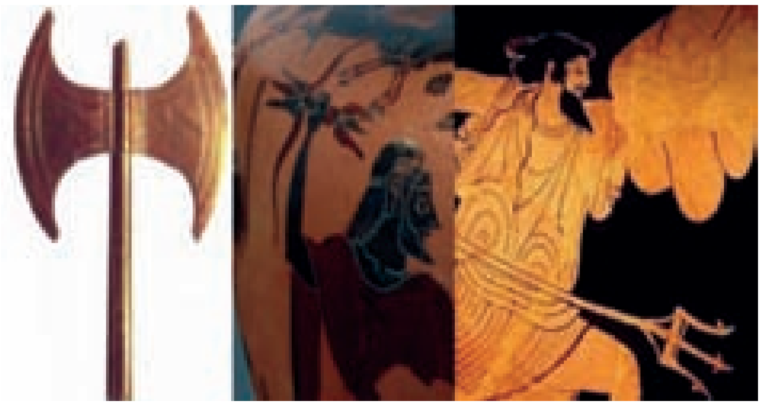
نسـر)، بينمـا كان اثنــان آخران متواجهــان فوق العرشـ يقدمان الحماية عند قدمي الملك ـ الكاهن.



الإلهة الأم تمد يديها وقد التفت عليها الثعابين، وابنتها ترفع يديها وقد حملت ثعبانين أيضاً. كانت عبادة الثعبان منتشرة في اليونان القديمة

وفي الحقيقـة، يبـدو أن ملوك كنوسوس كانـوا يمارسون إضافة إلى السلطـة الزمنيـة سلطـة كهنوتية، بحيـث كان قصرهم يشكل غـرف المعبـد. ولم تكن العبـادة تتم فقـط في المعبـد خلف حجرة العرشـ، إذ كان ثمـة غرفتـان متصلتـان تنفتحـان علـى الواجهة

الغربيــة نفسهــا من الباحــة الرئيسية، وركن مبنــي بأربعة حجارة من الجبســ ينتصب وسط كل منهما. وكانــت الحجارة كلها تحمل إشارة الفأس المضاعفة، وهو رمز الإلهة المينوية الكبرى. وكان لهذا الرمــز الغريب في نظر المينويين دور رمــزي، كما يُعتقد. وهو يوجد بشكل ثابت ومتكرر عبر القصر كله. وكان للإلهة توابع أخرى تتمثل بالثعابين وبالحمامة.



الفأس المزدوجة أحد رموز الإلهة الكبرى ووسيلة لقتل المينوتور

ومن الجلي والأكيد أن عبادة هذه الآلهة المؤنثة كانت ذات أهمية أوليــة في حيــاة البــلاط. وكان القســم الأكبر من الجنــاح الغربي يشــكل، بشكل ما، تجمعاً من المعابد، وحجرة العرش نفسها كان لها دور دينــي. هل كان المينويون يؤلهون ملكهــم وربما كانوا أيضاً، كما افترض إيفانز، يعتبرونه كابن للإلهة الكبرى، أمّ الأسرار؟

ونحن لا نعرف شيئاً عن هذه الأسرار أو الألغاز. ويبدو أن الأعمال الفنية لهذا الشعب تشدد على لطف الحياة في العالم الدنيوي، وعلى الرغبة والرفاهية والجمال والأبهة. وكانت أساليب متعارضة جسورة تعطـي الحياة للقصر، وتنعكس من خلال الألوان: الأحمر والأصفر والأسود والأزرق الفاتح والغامق. وكانت أبسط الأدوات اليومية مثل جرار التخزين ذات جمال استثنائي. وكانت قطعة واحدة، هي رقعة شطـرنج الملك التـي اكتشفت تحت أرض أحـد الممرات، تشهد على رغبـة المينويـين بالهناء وبالسعـادة وعلى تذوقهم للألـوان الحية. وكان يمتـزج فيها سطوع الذهب والفضة والعاج والكريستال، ومما لاشـك فيه أن الإنسان الذي كان يستمتع بلعبة من هذه النوعية كان يتمتع بثمار هذا العـالم. وبالمثل، فإن المسرح المكشوف، الذي كانت دكاته الحجرية تتنضد على هضبة مائلة بانحدار لطيف بحيث كان كل فـرد من الخمسمئة مشاهد يستطيع مشاهدة العرض، يتعارض مع أية فكـرة سوداوية. ففيه كان البهلوانيون والمصارعون يتوزعون لإلهاء الحضور، وربما كان الشباب يرقصون هنا على المسرح الذي صممه ديدال لآريان ذات الضفائر الجميلة.

اللوحات الجدارية ومفتاح الأسطورة

كان المينويـون يعيشون حياة مرفهة ويستمتعـون بها تماماً. ومع ذلـك، دُهشـ إيفانز للعناية التـي كانوا يخصصونهـا لرفاهيتهم، وللبراعـة التي درسوا وبنوا بها أقنية تصريـف المياه، وآبار التهوية

والمغاسل وآبار الإنارة، وشبكة كاملة من أماكن رمي القمامة والأقذار. كانت أبعاد هذا القصر، بطوابقه الخمسة وأدراجه الضخمة وممراته ومسطحاته وأروقته المزينة بالرسمات، تدهشه أقل من رؤيته للمينويين يستخدمون المنشآت الصحية التي لا تزال منازل كثيرة في عصرنا هذا تفتقر إليها. وكان ثمة مغطس من الطين المشوي للملكة قائماً في حمام خاص.



كان على إيفانز أن يبذل في كل لحظة جهداً لكي يتذكر بأن هذه الحضارة كانت قد اختفت نحو عام ١٤٠٠ ق.م، على الرغم من أن الأبنية كانت حديثة من كافة النواحي. ترى هل كانت شخصيات الرسوم الجدارية التي كانت تمعن النظر إليه تخرج حقاً من عالم اختفى؟ الحق أنها كانت تبدو وكأنها تتحرك كما

نفعل ذلك اليوم وتواجه الحياة بمستوانا نفسه! فالنساء الفتيات والجميلات بأثوابهن المزركشة على دائرها وبأكمامهن المنتفخة، مع ذبالاتهن المعقوفة والمصفوفة يشبهن إلى حد كبير تصفيفات الشعر في عصرنا. وكن يجلسن في الصفوف الأولى من المسرح، ويرتدين قفازات كن يتركنها أحياناً على مساند كراسيهن القابلة للانثناء.


سيدة في كامل أناقتها من كنوسوس

وكن يثرثرن بمرح ويؤكدن على أحاديثهن بالحركات البسيطة والمرحة! وكان يبدو أنه من شبه المستحيل أن يكن قد عشن منذ آلاف السنين. ولكي يتأكد إيفانز من أن هذه الرسوم كانت تمثل حقاً مشاهد من الحياة القديمة، كان عليه أن يفحص ثياب الأعيان والسادة الذين كانوا يرافقون النساء، والحق أنهم كانوا بوزراتهم المطرزة وبأحذيتهم المرتفعة حتى ربلة الساق، وبجذوعهم العارية من الخصر فما فوق، وبشعورهم المصفوفة على شكل كعكات من جدائل في قمة الرأس، وكأنهم أتوا من عالم مختلف.



حامـل الريتـــون

وقبل اكتشاف وترميم اللوحات الجدارية، كان إيفانز قد تساءل كثيراً عن شكل المنيويين، وعن الجنس الذي كانوا ينتمون إليه. وقد حصل على الإجابة في اليوم الذي نبش فيه عماله جدارية «حامل الريتون». وقد تجاوزت دهشة إيفانز في حينه ما كان قد شعر به أمام عرش مينوس. «إن هذا الفتى، الذي يبدو في كمال قوة صباه، كان يتميز بشيء مؤثر جداً». كما كتب إيفانز فيما بعد. ويردف أيضاً: «بعد أن أتينا به بعد سنين طويلة إلى جونا المعاصر، إذا به يجسّد لنا ما كان بالأمس فقط عالماً منسياً. وحتى عمالنا الجهلة أحسوا بروعته. وكان اكتشاف مثل هذا العمل الفني في قلب الأرض يبدو لهم أمراً خارقاً.

كانت لوحة لشاب جميل يحمل إناء مدبباً وطويلاً من الذهب ومن الفضة. وكان يمسك مقبضه بيده اليمنى وقاعدته بيده اليسرى. وكان جسده مقوساً بكامله إلى الوراء، مما يشير إلى أنه كان ينوء بحمل هذا الريتون الممتلئ. وكان يرتدي وزرة مطرزة وحزاماً مشدوداً بقوة. وكان يزين ذراعه اليسرى سواران فضيان، ومعصمه الأيسر سوار آخر. ولم يكن إيفانز قد رأى في حياته كائناً إنسانياً من هذا النمط. كانت بشرته داكنة، تميل إلى البني المحمر، وتساءل عالم الآثار إذا لم يكن الأمر يتعلق بلون اتفاقي استعمله الكريتيون لتمثيل الجنس القوي. وعلى الرغم من لونه الغامق ومن شعره الأسود المتموج ، فقد كانت لـ«حامل الريتون » هيئة أوروبية



آرثر إيفنز، مكتشف قصر كنوسوس

واضحـة. والحق أن المنظـر الجانبي لهذا الإنســان الذي يرجع لعصر قـديم، باستثناء شفتيه الغليظتين، يمكـن أن يقارن بسهولة بمعايير الكلاسيكية الإغريقية.

وتــردد إيفانز في البداية، ترى هل يمكنه تشبيه هذا النمط بنمط المينويــين؟ وكان كلما فحص اللوحة الجدارية كلما ازداد شكاً. ولكن مع مرور الوقت ظهــرت لوحات أخرى من بين الردم، وسمحت لعالم الآثــار بتكوين فكـرة دقيقة عن بنية هــذا الشعـب الفيزيائية. وكان أسياد بحر إيجة هؤلاء صغار الحجم، داكني السحنة وحليقين بشكل جيــد. كانت أكتافهم عريضة وقاماتهـم ممشوقة (إلاّ إذا كان الأمر يتعلــق بصفة اتفاقية)، وكانت أيديهـم وأرجلهم قصيرة، وشفاههم غليظــة أو ممتلئة، وكانت لهم أنوف طويلة على امتداد خط الجبين، وأخيراً كان شعرهم أسود اللون متموجاً ومصففاً على شكل كعكات.

وفي أحد الأيام، وبينما كان ينظف أحد الممرات الذي كان واضحاً أنه مخصص للاحتفالات الدينيــة، وهو يقع قرب الباحة المركزية، تعــرف إيفانز علــى كسر لنقش بارز من الجصــ، وهي على الأغلب تمثيل لموظف كبير، ولكــن عندما قام بتجميع القطع، عرف أنه كان قد حصــل على اللوحة الحقيقية للملك - الكاهن في كنوسوس. وكان إيفانز قد حلم كثيراً بهذا الملك، لكن ذلك لم يكن ليمنعه من الوقوف ذاهــلاً أمــام ما اكتشفه. وفي حين كان قد تخيّــل الأمير في أوج قوته وسلطانه، يجلس على العرش محاطاً بمستشاريه، يتلقى الإتاوات أو يلاحق طريدة على رأس رجاله، اكتشف رجلاً شاباً، يتصف بعظمة لطيفة ويجتاز حقولاً من الزنبق والبردى. كانت يده اليمنى مستقرة

فوق صدره، ويده اليسرى تمتد وراءه. وكان يزين صدره العاري طوق من الزنبق، بينما كان يحمل على رأسه تاجاً من الأزهار نفسها تعلوه ثلاث أرياش كبيرة من ريش الطاووس بانحناءة جليلة.

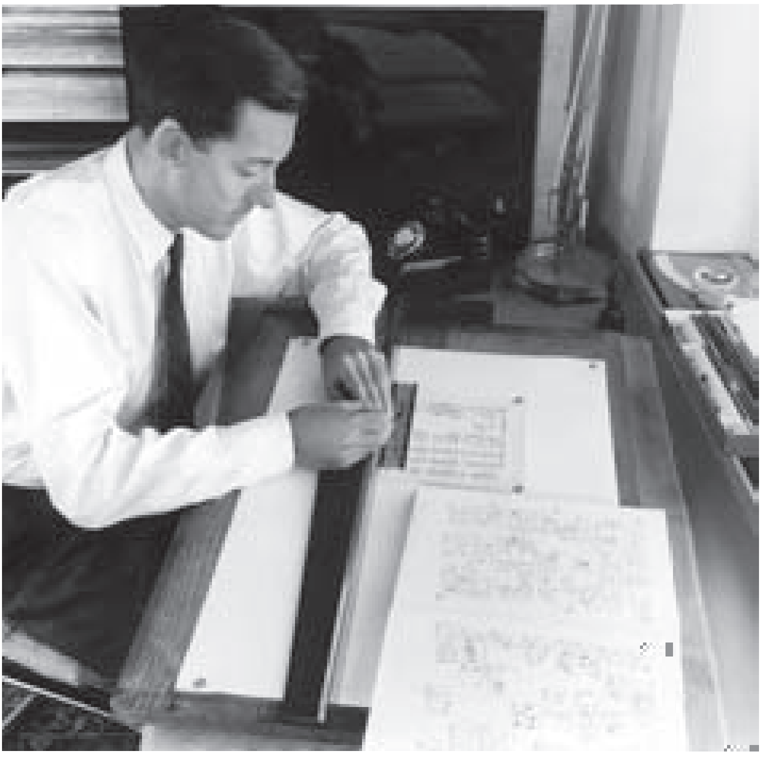


الملك الكاهن في كنوسوس

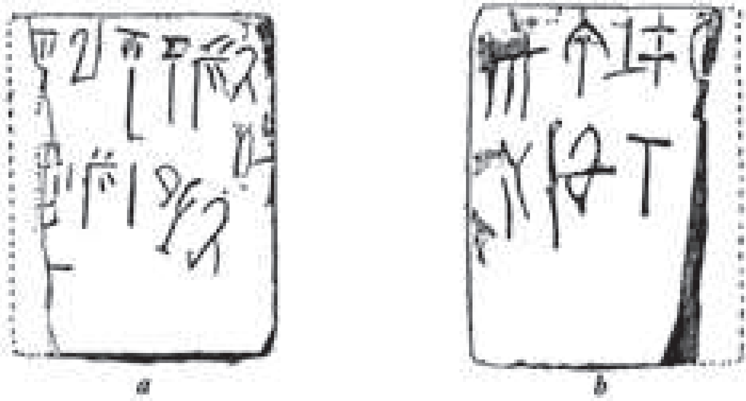
ولكن ما هذا الـذي كان يحمله في يده اليسرى؟ تراه صولجاناً؟ وهـل كانت هـذه اللوحـة الجدارية تتألـف من شخصيـات غيره؟ ربمـا كان الملك يقود حيواناً مقدسـاً، مثل العنقاء التي يقودها أحد الكهنـة أو الآلهة، كما كان يُشاهد علـى الحجارة المحفورة، المينوية أو الميكنينية. وبالمقابل، لم يكن ثمة شك أبداً بالصفة المقدسة لهذا الشخـص، إذ كان يمشي وسط أزهار الزنبـق، وهي أزهار مقدسة كانـت تزين تـاج الملك أيضاً. لقـد كان هذا الشاب هـو حقاً ممثل الإلهة المينوية الكبرى على الأرض... كان مينوس نفسه ممثلاً بأحد مظاهره الفانية!

فيـا لها من لحظة تلك بالنسبة لعالم الآثـار! لقد وضعته أخيراً قطـع اللوحـة المجمّعة أمام الملـك - الكاهن، الحاكم الأكـبر. إلاّ أن ذلـك لم يكن سوى الغلاف الذي لم يعرف محتواه الروحي. فخلال السنـين الطويلة التـي أمضاها إيفانز في كنوسوس، كان قد عاين واحتـك بالمينويين عن قرب شديـد حتى إنَّه لم يعد يعتبرهم كشعب اختفى. لقد كشف له قصـر مينوس سرّ بنيتهم الفيزيائية وثيابهم وغذائهم وأعمالهم وألعابهم وإبداعاتهم الفنية الرائعة وعباداتهم للإلهـة الأنثـى. وكذلك تعـرف علـى عمارتهم وتجارتهـم. وكانت الوثائق المكتوبة وحدها كفيلة بالسماح له بالدخول إلى فكرهم. لكنه

كان خـلال السنة الأولى من التنقيبات فقـط قد حصل على مكتبة كاملة من ألواح الصلصال. ذلك أن الحريق الذي دمرّ القصر كان قـد شواها مما جعلها أكثر صلابة. ولكن مـع الأسف، لم تكن لدى إيفانز أية فكـرة عما كان يمكن أن يقوله المينويون بهذه اللغة، التي كانت الهدف الأساسي والأولي لرحلته إلى اليونان.



ميخائيل فانتريس وهو يعمل على فك رموز الكتابة الخطية B



نموذج للكتابة الخطية A على وجهي لوح طيني وجد في فيستوس

لم يعش إيفانز فترة كافية ليعرف ذلك. لكن مختصين كثيرين عملوا بحماس في مسائل اللغة الكريتية وفك رموزها. وإن لم يكن مجمل المختصين بالعصر الهليني قد قبلوا بنتائج أعمالهم، إلاّ أن فرضيتهم الأساسية تتثبت كلما تقدمت الأبحاث والتنقيبات الحديثة. ويستعين إنكليزيان هما ميخائيل فانتريس Michael Ventris وجون شادويك John Chadwick بمناهج فك الرموز ضد الجاسوسية، وقد استنتجا وجود أكثر من نمط في الكتابة الكريتية. فلقد ظهرت في العصر المسمى بعصر القصور الأولى (بين عام ٢٢٠٠و١٧٥٠ق.م)، وسنرى لماذا سمي هكذا فيما بعد، الكتابة في الجزيرة على شكل رسم تصويري في البداية، ثم ظهرت الكتابة الهيروغليفية بعدها. وخلال عصر القصور الثانية (١٧٥٠ إلى عام

١٤٠٠ ق.م)، تبسطت الرموز الهيروغليفية إلى كتابة عادية سميت بـ الخطية A، وانتشرت عبر كريت كلها.



لوح صلصالي عليه رموز الكتابة الخطية B

وبعد بضع سنوات، وخلال الفترة نفسها (نحو عام ١٥٠٠ ق.م)، ظهرت الخطية B، إنما كانت كتابة محدودة بكنوسوس فقط، وكانت قد أخذت عدداً كبيراً من إشارات الخطية A وتركت الأخرى فيما أضافت رموزاً جديدةً. وقد اكتشف لاحقاً أن ألواحاً كثيرة وجدت في اليونان القارية، في بيلوس وميكينا وطيبة وإيلوزيس، وترجع إلى حوالي عام ١٤٠٠ ق.م، كانت منقوشة بإشارات الخطية B. ونجح شادويك وفانتريس بتفسير عدد كبير من إشارات الخطية B بافتراضهم أن الأمر يتعلق بوثائق كتبت باللغة الإغريقية القديمة، وذلك بالنسبة لألواح اليونان القارية وكنوسوس على حد سواء (بعد عام ١٥٠٠ق.م).



لوح آخر يحمل رموز الكتاب الخطية B،
مع توضيح لشكل الكتابة والرسم على الوجه الثاني منه

بالمقابل فإن الخطية A ترتبط بلغة مختلفة تماماً، كريتية بحتة، لا تـزال غـير معروفة وسيسمح تقـدم العلوم الآثاريـة على الأرجح بكشـف النقاب عنها. وسيأتي "حجر رشيد"، كالذي اكتشف خلال حملة نابوليون على مصر وأدى إلى فك رموز الكتابة الهيروغليفية، أو ذكاء قـادر علـى استنباط معـاني رموز هذه الكتابـة، في الوقت المناسب ليكشف عن ماضي كريت البعيد.

ثيسي والمينوتور

لم تكـن مسألــة الكتابة المينويــة بالتأكيد المسألــة الوحيدة التي أقضّـت مضجـع إيفانــز على مرّ السنــوات التي خصصهــا لإحياء قصــر مينوس. ففي كل لحظة كان يُطرح هذا السؤال الشائك: من الذي دمّر إذاً قصر كنوسوس وبأية طريقة؟



مجسم لقصر كنوسوس

طبّــق إيفانــز في أبحاثــه مناهج آثاريــة مختلفة؛ فقاسـ بعناية المستويــات ودوّن مكتشفــات كل طبقــة، وصنّــف الخزفيات، وقارن

أساليب العمارة والرسم والتزيين والكتابة، وأخذ بالحسبان الانقطاع التطوري، وأرّخ كافة الأدوات التي توحي باتصال مع مصر. وبفضل هذه الأعمال الدقيقة، استطاع عالم الآثار أن يعيد جزئياً تشكيل الماضي العاصف للقصر. كان بناؤه الأول يرجع إلى نحو عام ٢٠٠٠ق.م، وبعد بضعة قرون، أي نحو عام ١٧٥٠ق.م، دمِّر وقُلب رأساً على عقب. ولم يفقد المينويون حماستهم، وسرعان ما بنوا قصراً جديداً، أكبر من السابق، تميز بنمط عمارة وبمواضيع تزيينية وزخرفية جديدة تماماً. فقد زيّن بحلزونات وورود بارزة وبرسمات جدارية أكثر واقعية.



رسم جداري للعنقاء في قصر كنوسوس



جانب من قصر كنوسوس كان مدفوناً تحت التراب

ونحو عام ١٥٧٠ق.م تعرض القصر لدمار جديد سببته هذه المرة هزة أرضيـة قوية. وكان إيفانز واثقاً تماماً من ذلك. إذ إنَّ انقلاباً من هذا النوع لا يمكن أن يكون من عمل إنساني. وكانت قطع كثيرة جـداً، في حالتهـا الجديدة غالبـاً، وأجنحة كاملة مـن القصر، قد دفنت تماماً خلال الهزة الأرضية. أما فيما يتعلق بالمصاطب العليا من المنحدر الشرقي، فقـد اكتشف إيفانز مشاغل كانت الخزفيات فيها قد غطيت تماماً بالتراب، رغم أنها كانت مصفوفة بعناية على الأرض. وكانت حجـارة ضخمة من جدران القصـر قد تدحرجت

حتــى وصلت إلى مسافة سبعة أمتار عن هذا الموضع، ساحقة منزلاً صغيراً لصانع مصابيح!

وفي هــذه المرة أيضاً انتصرت الحياة على المأساة. وارتفع قصر جديـد. وحلت عندها الكارثة الأخيرة؛ فنحــو عام ١٤٠٠ق.م انهار قصــر مينوسـ نهائياً. وكانــت الأسبــاب الجوهرية لهــذه الكارثة تشغــل إيفانز بشكل خاص. فهل كانت ناجمة عن غزاة حملوا معهم الضربــة القاضية للصرح، وما كان دافعهــم إلى ذلك؟ كان إيفانز يكتشــف آثار هؤلاء الغزاة في كل مكان تقريباً، ولكن كيف كان عليه أن يفســر ذلك؟ كيــف يفسّر مثــلاً فجائية اجتياحهــم؟ والحق أن كل شــيء كان يوحي بــأن العدو انبثق فجأة كالــبرق الخاطف! ففي مســاء الكارثــة نفسها كانت مجموعــة من العمــال منهمكة بالعمل قرب كتلة مــن الكلس. وقد وجد إيفانــز أدواتهم مبعثرة في فوضى كبيرة، تماماً كما كانوا قد تركوها. وكانت الآنية المحطمة والمكسرة إلى آلاف الكســر في غرفة العرش توحي بــأن الأعداء فاجأوا الملك أثنــاء أحد الاحتفــالات الدينية. وكان مشغل النحــت الذي اكتشفه إيفانــز في الطابق العلوي يعطي الانطباع نفسه عن التوقف المفاجئ للنشــاط فيــه. وكأن النحات في هذا المشغل ينحــت الجرار الكبيرة للقصــر. ووجــدت فيــه أمفورة (جــرة) ضخمة من المرمــر المعرّق المعــروف في كريت. كانــت ثقيلة حتى إنَّها احتاجــت إلى أحد عشر رجــلاً لنقلها بواسطة الحبال والجــذوع، وبصعوبة كبيرة، مع ذلك

لم تكـن قد أكملت، وأخـرى أصغر منها كان تشذيبهـا قد بدأ للتو. كذلك فإن رقعة الشطرنج الخاصة بالملك، هذه القطعة الثمينة من المصـاغ، كانت قد تُركت وطُمرت في أحد الممرات مما يثبت فجائية الهجوم غير المتوقعة.



بعض أشكال الجرار والأمفورات والآنية التي وجدت في كنوسوس

ومـن جهة أخـرى، كيف كان يجب تفسير واقـع أنه لم يكن يبدو علـى الكريتيين أنهم يخشون الغزاة؟ ذلك أنه لم تكن للقصر عملياً تحصينات دفاعية. وفي حين بدت ميكينا وتيرنثا وكأنهما مختفيتان وراء أسوارهمـا المنيعـة التي ظلـت ثخانتها في بعض المواقع، حتى بعـد قرون طويلة، تصل إلى خمسة عشـر متراً وأكثر، كانت واجهة القصـر المفتوحة باتجاه المرفأ هي الوحيدة المحصنة في كنوسوس.

فقرب الممـر الحجري الذي يقود إلى المدخل الرئيسي كان ينتصب حصن وحيد، مع غرفة للحارس وباب خفي للهرب. فأي هدف سهل كان يقدمـه هـذا القصر الغني لـكل الطماعين! ولما كان المينويون يعرفـون ذلك، فكيـف كانوا يعيشون هـذه الحياة الوديعـة دون أي اهتمام بأمنهم؟ وما الذي كان يعطيهم ذلك الأمان كله؟



مشهد قريب لقصر كنوسوس بعد ترميم أجزاء منه

«كان مينوس بحسب معرفتنا أول رجل يبني أسطولاً قوياً» كما كتب المؤرخ الإغريقي. «وأصبح سيد ما ندعوه اليوم بالمحيط الهلينستي...» ربما كان هنا يكمن إذاً مفتاح اللغز الحقيقي! وإذا كان المينويون يتفرغون لأعمالهم بقلوب مطمئنة، ناعمين بالجمال وبالرفاهية وبالبذخ، فذلك لثقتهم ولعلمهم بأنهم كانوا آمنين. كان

ملـوك كريـت أسياد البحر، وكانت مراكبهم تمخـر عبابه، وبما أن نفوذهم البحري دام طويلاً فلم يكونوا يخشون أي اجتياح ضدهم. وكانت عصابة من القراصنة اليائسين هي وحدها فقط قادرة على تحقيـق هجوم مفاجئ على القصر، وكانـت أسوار كنوسوس كافية لرد مثل هـذه العصابة. لكن الذين دمـروا كنوسوس لم يكونوا من القراصنة، فالضربة كانت قاسية جداً، وعلينا نسبها إلى عدو أقوى بكثير، فمن أين أتى هذا العدو؟

درسـ إيفانز المسألة بانتبـاه، ورأى بفضل خبرته الشخصية أن يتخلّى عـن نظرياته المثيرة لصالح فرضية بـدت له أكثر ترجيحاً. وهكـذا فقد عزا هـذا الدمار إلى قوى طبيعيـة. والحق أن مقاطعة كنوسوس نفسها عرضـة بشكل خاص منذ القدم للهزات الأرضية. فمنـذ خمسمئة عام يصيب البلد زلزالان كبـيران كل قرن. وهكذا فإنه لم يُفاجأ أبداً عندما بدأت الأرض تهتز في ٢٦ حزيران من عام ١٩٢٦ في الساعـة الحادية والعشرين والدقيقة الخامسة والأربعين، بعد نهار هادئ وحار، فقد سبق ذلك عدة هزات خفيفة.

كان يقـرأ وهـو مستلـق في السريـر، في أحد أقبيـة الحي العام للتنقيبـات، عندما شعر بأولى الهزات، ولكنـه كان واثقاً بالهندسة المعماريـة المقاومـة للمبنى فقـرر ألاّ يتحـرك وأن يراقب ما يحدث مـن الداخل. وأخـذ المنزل يقرقـع ويئـن، ويرتفع ويتأرجـح في كافة الاتجاهات، حتى بدا وكأنه لم يعد يستطيع المقاومة. وأخذت الأدوات



إيفانز في لوحة تظهره وهو يعمل

على القطع الأثرية في كنوسوس

والقطـع الصغيرة تتطاير من كافة جوانـب الغرفة، وانسكبت المياه مـن دلو حتى فرغ أو كاد وتبلَّلت أرضـ الغرفة. والحق أن ذلك كان يشبـه كثـيراً عاصفـة في البحر ـ مـع أن الهزة لم تـدم سوى خمس وسبعـين ثانيـة ـ حتى أصـاب إيفانـز الغثيان. وزاد مـن وقع الهزة ارتفاع دوي مخيف من أعماق الأرض، «مثل خوار ثور هائج».

ولما عاد الهـدوء، هبّ إيفانز إلى خارج ملجئه ليأخذ فكرة أولية عـن مدى اتساع الأضـرار. ولم يكن خائفاً علـى ترميماته للقصر ـ التـي كان قد أعاد بناء معظمها بماله الخاص ـ إذ إنَّه وضع في كافة المواضع – المتاح فيها ذلك – هياكل معدنية مخفية في البناء لتجنب مثـل هذا النوع من الأخطار. ولكـن في القرى والمدن المجاورة كانت الأضـرار جسيمة وفادحة. ففي كاندي، وهي من أقل المدن تضرراً، دُمّر خمسون منزلاً، بينما تهدم ثلاثمئة منزل آخر جزئياً.

بعـد هـذه التجربة، لن يدهشنـا أن يترك عالم الآثـار نظرياته كلهـا حـول الاجتياحات لصالـح نظرية هزة أرضيـة تلتها حرائق. لكن مؤرخين ودارسي نصوص كثيرين ظلوا متعلقين بفرضية أقدم وأكثر شاعرية، ترتكز على تفسير المشاهد التي أخذت تتكرر بثبات مثير ومحيّر على بعض اللوحات الجدارية التي وجدها إيفانز، وعلى تماثيل صغيرة وخواتم وحجارة محفورة وأختام من الصلصال.

فعندمـا اكتشفـت اللوحة الجدارية للثـور الضخم في تيرنثا، لم يستطع أحد تقديم تفسير موافق للمشهد الممثل عليها. وكان شليمن قد تخيـل أن هذا المصارع الذي يقوم بقفـزة خطرة فوق الحيوان، متمسكاً بأحد قرنيه، «كان يرقص» عليه! وبالمثل فإن أحداً لم يفهم معنى اللوحات الجدارية للثيران التي اكتشفها إيفانز في كنوسوس. ومع ذلك، أخذت بعض جوانب المسألة تتضح شيئاً فشيئاً.



الفتاة والثور، جزء من لوحة المصارعة الشهيرة..

كان المينويـون يستخدمـون ثيراناً ضخمـة لاستعراضات شعبية تتـم أثناء الاحتفالات الدينية. وكان «مصارعو ثيران» يدخلون شبه عراة إلى الحلبة، ويهاجمون هـذه الحيوانات مخاطرين بحياتهم. والصبايـا كنـا يمارسن هـذه الرياضـة مثل الشبـاب، وكانت هذه الرياضـة ترتكز على ما يبدو على التمرس بالقفز العالي على ظهر الثـور بالتعلق بقرنيه. وتصور لوحـة جدارية كان إيفانز قد اكتشف كِسَرهـا على المنحـدر الشرقي للقصر، وكانت قـد وقعت دون شك مـن طابق علـوي، ثـوراً وثلاثة «مصارعـين»، هم شابتـان وشاب. ونرى الثور مندفعاً في ركضه بينما يقوم الشاب بقفزة خطرة فوقه. وتمـد إحدى الشابتين يدها باتجاه رفيقهـا لكي تمسكه أو لتساعده في الوقـوع منتصباً إذا لم ينجح. أما الأخـرى، فإنها تقف مواجهة للحيـوان الهائج، في أكـثر لحظات اللعبة دقة وخطـراً. ونراها هي أيضـاً تتعلـق بقرنيه لكي تستطيـع القيام بقفزة خلفيـة فوق الثور. ويبـدو أحد قرني الثـور وكأنه يمرّ تحت إبطها، وليس مؤكداً أبداً أنهـا ستنجـح بالحفاظ علـى تمسكها بقرنـه وعلى القفـز. بل إن الصورة توحي بالأحرى أن الثور غلبها وسيطر عليها، وأنه سيمزقها بوحشية.

من كان هؤلاء الشبان والشابات الشجعان؟ وهل كانوا يخاطرون بحياتهـم بمـلء رضاهـم؟ أم أنهم كانـوا مجبرين علـى مهاجمة الثور؟



صورة كاملة لمشهد مصارعة الثور، حيث يقفز الشاب فوقه وتتلقاه الفتاة في الطرف الآخر، بينما تواجهه فتاة أخرى

لم يكـن إيفانز يعتقد مـن جانبه بأن هـؤلاء «المصارعين» كانوا سجنـاء أو أسرى أو مخطوفين. بل كان يـرى أنهم نبلاء ومميزون جـداً، إضافـة إلى أن تسريحاتهم كانت كريتيـة بشكل خاص. لكن عـدداً كبيراً من المؤرخـين كانوا يعتقـدون بأن شخصيـات اللوحة الجداريـة كانت تمثّل أسطورة معينة. أو لم يكـن هذا القصر ملكاً للملك مينوس، أو لم يكن يمثل اللابيرنث الفخم، ثم ألم تكن عبارة

«مينوتـور» تعني «ثور مينوس»؟! إن أسطـورة ثيسي والمينوتور كانت تُبرز بوضوح في كافة الأحوال وجود أسرى في كنوسوس. ولكن لنرى أولاً كيف تتسلسل حلقات هذه الأسطورة.

كان يحكم كريت فيما مضى ملك قوي جداً، يدعى مينوس، بنى له المعماري ديدال بناء ضخماً ومعقداً جداً في تخطيطه، وكان الملك يسجـن فيه مسخاً مريعاً. وكان هـذا السجن يدعى اللابيرنث؛ أما المسـخ الـذي كان نصفه بشراً ونصفه ثوراً، فـكان يدعى المينوتور. ومـن جهـة أخـرى كان لمينوس ابـن يدعـى أندروجي، وقـد أرسله ذات يـوم إلى أثينا ليشارك في الألعـاب المقامة فيها. وهناك أظهر أندروجـي براعة وبسالة فائقتين حتـى إنَّه تفوق على كافة منافسيه الإغريـق. ولم يرضـى ملك أثينا إيجـه أبداً عن هـذا النصر، فأمر بقتله دون تردد.

لم يأخذ مينوس أمر قتل ابنه ببساطة وبروية. بل اشتعل غضباً، وسرعـان مـا قاد أسطولـه الضخم معلنـاً الحرب علـى الأثينيين، وكانـت حرباً مدمرة حتـى إنَّ الأثينيـين أخذوا يتوسلـون ويطلبون السـلام. وانتهى الأمر بـأن منحهم مينوس السـلام، إنما بشروط مذّلة جـداً. إذ كان على الأثينيين خلال تسعة أعوام أن يرسلوا إلى كريـت مجموعة من سبعـة شبان وسبع شابـات كتقدمة للمينوتور. وكان علـى الأثينيـين الذيـن امتلأت قلوبهـم بالمـرارة أن يخضعوا لذلك.

وعندمــا جاء رسل مينوس للمــرة الثالثة إلى أثينا ليذكِّروا إيجه ملكها بوعــده، كان ابنه ثيسي قد وصل إلى المدينة في الوقت نفسه. وكان ابــن إيجه هذا، الذي نشأ بعيداً عنــه، قد جاء إلى أثينا ليراه والده. وعندما رأى كم كان المواطنون ناقمين على ملكهم لتوريطهم في مثــل هذا الأمر القاسي، قرّر أن يحل محــل أحد الفتيان السبعة المنذوريــن للتضحية. ولم يستطــع إيجــه منــع ولده الــذي لم يكــد يــراه بعد، رغــم مــا كان يشعــر بــه مــن تحطم قلبــه. وهكذا رفــع المركــب الحزيــن أشرعته السوداء وانطلق في عرض البحــر. وبينما كان الأثينيــون اليائسون ينظرون من على الشاطئ أولادهم المحكومين، صرخ لهــم ثيســي أنــه فيما لو حالفه الحظ ونجح بقتل المينوتــور، فإنــه سيبــدّل عنــد العــودة الأعــلام



آنية رسم عليها مشهد ثيسي
وهو يقتل المينوتور

السوداء بأخرى بيضاء. وعندما وصل الأسرى إلى كنوسوس قُدّموا إلى الملـك مينوس. وعندها أغرمت آريان بنت الملك بجنون بالأمير الأثينـي. وفي هذه الليلة، وعندمـا كان ثيسي يرقد في زنزانة، وافته أريـان ورجته أن يفرّ. لكن ثيسي لم يكن يفكر بترك رفاقه؛ وعندها قررت أريان أن تساعده بطريقة أخرى. فأعطته سيفاً ولفيفة خيط طويـل؛ السيف ليدافع به عن نفسه والخيط مـن أجل أن يهتدي به لطريـق الخروج من اللابيرنث. وكانت هـي نفسها تمسك باللفيفة وتمـد الخيـط لثيسي الذي ربـط الخيط بذراعه وانطلـق بحثاً عن المسـخ. وهكذا جابـه ثيسي المينوتـور في أعمق أعمـاق اللابيرنث، وحصلـت بينهما معركـة رهيبة، وعندما تغلّب عليـه وقتله استطاع أن يعـثر بسهولة على طريق العـودة، ولاذ بالفرار مع رفاقه دون أن ينسـى أن يأخذ معه آريـان ذات الضفائر الجميلـة. لكن الأثينيين في غمـرة فرحهـم برؤيـة وطنهم نسوا تمامـاً أن يرفعـوا الأشرعة البيضـاء، فاعتقد إيجه أن المسخ ابتلع ولده وألقى بنفسه في البحر. ومنذ ذلك الحين دعي البحر ببحر إيجة.

كانـت أسطـورة ثيسي والمينوتور هـذه شهيرة جـداً في العصور القديمة. وكان الإغريق يؤمنون بها إيماناً مطلقاً. وكان الأمر يصل بهـم إلى الاعتقـاد بأن مركباً قديمـاً جداً من أسطولهـم كان حقاً المركـب الـذي أبحر فيه ثيسـي باتجاه كريت، ونشـأت لديهم عادة إرسال هذا المركب كل عام محملاً بالتقديمات إلى ديلوس. وخلال



الفأس المزدوجة، الرمز الديني والأنثوي في الحضارة المينوية

فترة غيابه كانت أثينا تنتظره باحتفال رسمي في محاولة لطرد المصير السيِّئ. ولقد تأخر قتل سقراط مثلاً ثلاثين يوماً حتى عودة المركب المقدس. وكان العلماء جميعهم مقتنعين، مثل إيفانز نفسه، بأن قصر مينوس، مع متاهات غرفه المتلاحقة وممراته وأدراجه وصحون الدور فيه، كان لابيرنث الأسطورة. وكان إيفانز قد لاحظ ببراعة أن أصل الكلمة يتوافق مع أصل كلمة لابريس labrys، وهي الفأس المضاعفة لإلهة المينويين، المنقوشة على آلاف الحجارة عبر القصر كله. وكان ذلك يشير إلى أن القصر كان معروفاً بهذا الرمز الإلهي.



شكل الفأس المزدوجة محفوراً على جدران قصر كنوسوس

أمـا فيما يتعلق بلوحة «المصارعـين» الجدارية، فيمكن أن تتعلق بنهاية الأسطورة، فهؤلاء الشبان والعذارى كانوا من المجموعة التي أرسلـت إلى أثينا، ومع أن المينوتور لم يكن قـد ابتلعهم، إلاّ أنه كان عليهـم مواجهة المـوت أمام ثـور وثيسـي؟! إن دوره كان واضحاً في الأسطـورة. وإن وُجد هذا الاسم أم لا، فـإن انتصاره على المينوتور كان يرمـز إلى يوم النصر الـذي ثأر فيه إغريق اليونان القارية من مينوس ودمروا قصره ومملكته. ذلكم هو على الأقل تفسير الوقائع بحسب المؤرخين المعارضين لفرضية الهزة الأرضية.



نظام الصرف الصحي والمائي المبني من الحجر في كنوسوس

لكـن إيفانز كان يرجـح، بسبب تأثير التجربة التـي عاشها يوم ٢٦ حزيران، أن أسطـورة المينوتور ولدت بعد دمار القصر. واعتبر الغـزاة الذين وصلوا كريت كمستوطنين جدد وليسوا هم المدمّرون. وبحســب نظريته دُهشـ هؤلاء أمام الخـراب العظيم للقصر الذي كان، في حالــة هجرانه، مع أبوابه المسدودة وبنائه ما تحت الأرضي الضخـم ونظــام تصريف الميــاه الحجري فيه، والــذي كان بإمكان إنســان أن يزحـف فيــه بسهولــة، يشبه متاهــة حقيقيــة. وحرّكت

اللوحـات الجدارية للثيران، التي وجدوها في أماكنها، مخيلة هؤلاء القادمـين الجدد. وهكـذا رأى إيفانز أن أسطـورة المينوتور ظهرت لديهـم على مرّ السنـين، في جو من القلق ومن الألغـاز المنبعثة من هذه الخرائب وأمام هذه اللوحات التي تضج بالحياة، لتترسّخ بقوة متزايدة فيما بعد في فكر الأثينيين.

خاتمة.. من هم المدمرون؟

ولكـن كيـف نجّمع ونوحد مختلـف عناصر المسألـة إذا لم نقبل بفرضيـة الهـزة الأرضية، وملنا للاعتقاد مـع مؤرخين كثيرين بأن قصر مينوس دُمّر بيد الإنسان؟ من كان إذاً هؤلاء المدمّرون؟ أغزاة إغريـق كما نفهم من الأسطـورة؟ لكي نثبت هـذه النقطة نرى أنه مـن المناسب المرور بسرعة على تاريخ أوروبـا خلال القرون القليلة السابقـة لسقـوط كنوسوس. ففي تلـك الأزمنة البعيـدة، وفي حين كانت الشعوب التي تستوطن أوروبا الجنوبية تنتمي إلى هذا النمط الصغـير الحجم مـن البشر، ذوي اللـون الداكن والشفـاه الممتلئة والذين نراهم مرسومين على لوحات كنوسوس الجدارية، بدأ شعب مـن جنس مختلف بالوصـول إلى المنطقة عبر الغرب والجنوب. ولا يعرف أحد بالضبط نقطة انطلاق هذا الشعب. ويرى بعضهم أنهم أتـوا من آسيا، بينما يرى آخرون أن أصولهم ترجع إلى قرب وجوار بحـر البلطيق. وأياً كان الأمر، فقد كانـوا ينتمون إلى مجموعة من

الأجناس البيض، هي المجموعة الهندو-إيرانية التي تشغل اليوم عملياً أراضي أوروبا كلها.

وكان هؤلاء القادمون أقل تحضراً بكثير من الكريتيين ذوي اللون الداكن، ومن مستعمراتهم المتناثرة على القارة نفسها، وباختصار من بناة ميكينا وتيرنثا. والحق أننا لا نستطيع التحدث عن حضارة فيما يتعلق بهؤلاء القادمين الجدد إلاّ بصعوبة. لم يكن لديهم مدن أو قصور أو أية وسيلة للتعبير الفني. وكانوا يتنقلون باستمرار كالبدو بحثاً عن الكلأ لقطعانهم. وهكذا فقد عبروا شيئاً فشيئاً أوروبا كلها. ودخل فرع منهم، وهم الآخيون، إلى اليونان حيث احتكوا للمرة الأولى بالحضارة. فكم كانت هذه الميكينا الغنية بالذهب تبدو لهم جميلة! وكم كان سكانها يملكون أشياء جميلة! وسرعان ما تقرر هذه العشائر البربرية، التي لم تكن قد رأت أبداً مثيلاً لذلك، الاستيلاء على هذه الكنوز. فهاجموا المدن، لكن الأسوار العالية صمدت بوجههم. وعندها استوطن الآخيون المنطقة، وعلّمهم الأهالي الأصليون طريقتهم في الحياة.

أما الأحداث التالية فهي أكيدة وإن كانت غير واضحة تماماً. فبالنسبة لبعض المؤرخين، جدّد الآخيون هجماتهم وهرب أهل

ميكينـا إلى جزيـرة كريت آملين بـأن يجدوا الوطـن الأم المضياف الـذي يرحب بهم. لكن المينويين لم يستقبلوهم استقبالاً حسناً، فما كان منهـم إلاّ أن أحرقوا وخربـوا كنوسوس. ويرى مؤرخون آخرون أن الآخيـين انتصروا على الميكينيين وبعدها هاجموا كريت نفسها. وتتوافـق هـذه الفرضيات الأخـيرة بطريقـة معقولة مـع نظريات شادويك وفانتريس اللذين ذكرناهما سابقاً. فالمستعمرات الكريتية المقامـة علـى القـارة استوعبت لغـة المحليـين واعتمـدت كتابتهم (الخطيـة A تحولت إلى خطية B). ثم اجتـاح القاريون كنوسوس (ظهور الخطية B المحدودة في كنوسوس)، ودمروا المدينة.

وفي كافـة الأحـوال لم تقـم للمينويـين قائمة بعد هـذا الهجوم الأخـير. ولم ترتفع أسوار قصر كنوسوس المعتدة بنفسها أبداً بعد ذلك. وفرّ بعض سكان الجزيرة المهزومين نحو آسيا. وساد الآخيون سواحـل بحـر إيجه، وهـذا الأمر هو الأمـر اليقين الـذي علينا أن نأخـذ به من هذه القصة كلها. وإذا كانـت أشعار هوميروس تتغنى بأمجاد أبطال حقيقيين، فإن الآخي أغاممنون قد ساد على ميكينا الرائعـة، والآخـي إيدومينوس على كريت، وحكـم كل من مينيلاس وأخيل وأوليس على مملكـة خاصة به. وقد شاركوا جميعهم بحرب طروادة.



جانب من آثار طروادة التي فتحت باب البحث عن المدن المنسية القابعة تحت التراب فكانت بداية علم الآثار

ثم جاءت موجة جديدة لتتدفق على القارة، وهي موجة الدوريين، أوائل الإغريق. وكانوا من عرق الآخيين نفسه، إلاّ أنهم كانوا أقل تحضراً بكثير منهم عندما وصلوا إلى ميكينا. ولم يتعرف الدوريون على الروابط التي كانت تشدهم إلى إخوتهم المستقرين على شبه الجزيرة اليونانية. وبدورهم، بدا لهم أن الآخيين من سكان المدن غريبون، وأن لهم الحق كله بتدمير هذه المدن. ولكنهم على عكس القادمين الأوائل اجتاحوا كل ما صادفهم في طريقهم، دون أن

يأخـذوا شيئاً من الثقافـة القديمة والرفيعة التـي كانت تقدم لهم علـى طبق من ذهب! وهكذا قطعت الصلة التي كان يمكن أن تربط الحضارة الإغريقية الفتية بالماضي الغني جداً لمدن بحر إيجه.

وخلال ٣٠٠٠ عام، وحدها بعض الأساطير حفظت ذكرى العالم مـا قبل الهلليني. وذلك أن هـؤلاء الدوريين الخشنين كانوا يقدرون كثيراً أغـاني المآثر. وأعجبتهم قصص حرب طروادة، وسرعان ما أصبـح اسما أخيـل وهكتور أكثر قربـاً منهم من أسمـاء أبطالهم. وأخيراً فقد تبنوا أسطورة طروادة، هذه الأسطورة الخالدة، وكأنها أسطورة من أساطيرهم.



خارطة تبيّن موقع طروادة وأهم مواقع اليونان القديمة وجزيرة كريت

المراجـــع

Alexandre Farnoux : Cnossos : L'archéologie d'un rêve, Gallimard, Paris, 1993.

Annie Schnapp-Gourbeillon, «Neuf strates de ruines entre histoire et légende», Les cahiers de Science et Vie, n^{o} 70, 2002.

Ariane Eissen, Les Mythes grecs, Paris, Belin, 1993.

Carol G. Thomas et Craig Conant, The Trojan War, Greenwood Publishing Group, 2005.

Claude Mossé, «La guerre de Troie a-t-elle eu lieu?», L'Histoire, n^{o} 104, 1987.

David A. Trail, Schliemann de Troie, Paris, Grandes biographies Flammarion, 1996.

Dimitris Ananiadis: Cnossos : Le cœur de la civilisation Minoenne, Ed. M. Toubis, Koropi, 2005.

Edmond Lévy, Sparte : histoire politique et sociale jusqu'à la conquête romaine, Paris, Seuil, coll. «Points Histoire», 2003.

Françoise Ruzé, Sparte : géographie, mythes et histoire, Paris, Armand Colin, coll. «U Histoire», 2007.

Guy Rachet : Archéologie de la Grèce préhistorique : Troie, Mycènes, Cnossos, Gérard, Verviers, 1969.

Hervé Duchêne, L'or de Troie ou le rêve de Schliemann, Paris, Découvertes Gallimard Archéologie 250, 1995.

Homère, Iliade.

Irad Malkin, La Méditerranée spartiate. Mythe et territoire, Les Belles Lettres, coll. «Histoire», Paris, 1999.

J.M. Roberts, L'Extrême orient et la Grèce antique, vol. 2, Paris, 1988.

Jean-Claude Poursat, La Grèce préclassique, des origines à la fin du VI^{e} siècle, Paris, Seuil, coll. « Points Histoire / Nouvelle histoire de l'Antiquité», 1995.

Jean-Pierre Vernant, L'Univers, les dieux, les hommes, Seuil, coll. «Librairie du XXIe siècle», 1999.

Joachim Latacz (trad. Kevin Windle et Rosh Ireland), Troy and Homer: Towards a Solution of an Old Mystery, Oxford University Press, 2004.

Kostis Davara : Le palais de Cnossos, Éditions Hannibal, Athènes, 1980.

Mazoyer, Homère et l'Anatolie, L'Harmattan, 2008.

Jonathan S. Burgess, The Tradition of the Trojan War in Homer and the Epic Cycle, Baltimore, The Johns Hopkins University Press, 2001.

Le trésor de Troie - Les fouilles d'Heinrich Schliemann : exposition, Moscou, musée des beaux-arts-Pouchkine, 1996, Paris, Gallimard / Electa, 1996.

Louise Schofield, La Grèce ancienne, Paris, Nathan, 1999.

Lynn et Gray Poole, Schliemann à la découverte de Troie: One passion, two loves, Paris, Robert Laffont, 1969.

Paul Cartledge et Anthony Spawforth, Hellenistic and Roman Sparta: A Tale of Two Cities, Routledge, New York et Londres, 2003.

Paul Faure, Schliemann : à la poursuite d'un rêve in La Méditerranée d'Homère. De la guerre de Troie au retour d'Ulysse, Les Collections de L'Histoire, n° 24, juillet-septembre 2004.

Pierre Roussel, Sparte, Paris, De Broccard, 1939.

Richard Stoneman, Land of Lost Gods. The Search for Classical Greece, Hutchinson, Londres, 1987.

S.B. Pomeroy, Spartan Women, Oxford University Press, 2002.

Sonia Di Neuhoff : La civilisation Minoenne et le palais de Cnossos, Tzaferis, Athènes, 1970.

Trevor R. Bryce, «The Trojan War: Is There Truth behind the Legend?», Near Eastern Archaeology, vol. 65, nº 3, septembre 2002.

الفهرس

صدر من سلسلة كتاب أسامة الشهري

الرقم	اسم الكتاب	المؤلف
١	نحن جزء من هذا الكون	فايز فوق العادة
٢	دمشق	محمد قرانيا
٣	الأشرعة الحمراء	ترجمة: فيروز نيوف
٤	مملكة ماري	ترجمة: قاسم طوير
٥	مختارات من أسامة	
٦	القدس ناقص	د. هشام الحلاق
٧	الذرة	حسن بلال
٨	العلم يدهشنا	فايز فوق العادة
٩	مملكة إيبلا	أنطوانيت القس
١٠	البيئة: الطبيعة والإنسان	طه الزوزو
١١	قصة الكون والحياة والإنسان	موسى ديب الخوري
١٢	ربيع كاذب	عبد اللّه عبد
١٣	صفحات من تاريخ الموسيقا	محمد المصري
١٤	الأمير السعيد	ترجمة: أنطوانيت القس
١٥	قصة اختراع الأرقام	موسى ديب الخوري
١٦	الصوت والزمن	د. غزوان زركلي
١٧	حشرات في بيتك وحديقتك	هنادي زرقة
١٨	طريق الحرير	د. ريم منصور الأطرش
١٩	الحاسوب	أويس الشريف

٢٠	فلزات (سيليكون/كوارتز/حرير صناعي)	د. محمد عبود
٢١	الثقوب الكونية السوداء	فايز فوق العادة
٢٢	الفسيفساء	موسى ديب الخوري
٢٣	فن النحت في العصر القديم	د. تغريد شعبان
٢٤	التلوث النفطي	د. محمد عبود
٢٥	المحميات الطبيعية	هنادي زرقة
٢٦	مختارات من حكايات إيسوب	
٢٧	حيوانات المروج والغابات ناقص	محمد مروان مراد
٢٨	قصة اللاسلكي	جهاد سلامة الأشقر
٢٩	أوغاريت	موسى ديب الخوري
٣٠	ممالك سورية القديمة	د. تغريد شعبان
٣١	التخدير والانعاش عبر التاريخ	نزار مصطفى كحلة
٣٢	أساطير يونانية	أنطوانيت القس
٣٣	تاريخ الرسم	دلدار فلمز
٣٤	النفايات الصلبة	د. عبير عيسى
٣٥	الفينيقيون وأساطيرهم	محمد دنيا
٣٦	الرياضيات علم وفن	فليز فوق العادة
٣٧	الجراثيم والبيئة	د. سيراؤوس محمد
٣٨	حكايات الأخوين غريم	ترجمة: د. نبيل الحفار
٣٩	النانو وتطبيقاته	حسن عز الدين بلال

٤٠	غزو الفضاء	محمد دنيا
٤١	على دروب القرى المنسية	موسى ديب الخوري
٤٢	أعلام الكشف والاختراع	محمد مروان مراد
٤٣	قرطاج	د . هشام الحلاق
٤٤	أساطير من اليابان	محمد دنيا
٤٥	أوليات علم الفلك	فايز فوق العادة
٤٦	نشوء الحياة	هيسم جادو أبوسعيد
٤٧	المايا	موسى ديب الخوري
٤٨	فراشات وأحلام	أنطوانيت القس
٤٩	العلماء العرب رواد النهضة العربية	محمد مروان مراد
٥٠	الهندسة الوراثية وتطبيقاتها	حسن عز الدين بلال
٥١	من حكايات ألف ليلة وليلة	
٥٢	مملكة قطنا	د . بسام جاموس
٥٣	تعرف على الرياضات الجوية	محمد حسام الشالاتي
٥٤	قصة المسرح	جوان جان
٥٥	براعم الطفولة ترسم	
٥٦	من عالم الأوركسترا	ادريس مراد
٥٧	حماة مدينة أبي الفداء	أحمد عكيدي
٥٨	كيف نحل مشكلاتنا	د . هشام الحلاق
٥٩	الغيلم المحبوب	ترجمة: ميرنا أوغلانيان

نقرأ في هذا الكتاب قصة مغامرات عدد من رواد علم الآثار الأوائل الذين مضوا بحثاً عن عوالم لم يكن أحد يعرف شيئاً عنها، وطواها النسيان تماماً. تكتشف طروادة وميكينا وكنوسوس وكنوزاً لا تحصى، وتكتشف معها قصص الأساطير والملاحم اليونانية...

مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١٢م